العدد الخامس والعشرون
2008

مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1376 من وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام 2008 مسيحي

- دقة التعبير في نهايات الآيات القرآنية
- الإيقاع النثري (صوره وخصائصه)
- صورة بلنسية في الموروث الأندلسي
- دور الإسلام في التواصل بين مناطق الساحل والصحراء الإفريقية

مقدمة

الأدب العربي في عصوره المختلفة ولا سيما في العصر العباسي يمثل صورة صادقة لحالة العصر الاجتماعية والسياسية والفكرية، فشعر التوبة والاستغفار عند المجان العباسيين، من الموضوعات التي تستهدف دراسة ظاهرة من ظواهر الشعر في هذا العصر، والطريق في الدراسة محاولة المزج بين تيارين متضادين من تيارات الشعر في العصر العباسي، تيار المجون وتيار الزهد، فللمجون أهله وللزهد أعلامه، ومن المعروف أن المجون يمثل اتجاهاً بارزاً من

اتجاهات الشعر العربي في العصر العباسي، والزهد يمثل اتجاهاً عاماً أيضاً من اتجاهات الشعر العربي في هذا العصر، لا يقل خطراً وتأثيراً عن خطورة الاتجاه الماجن وتأثيره.

والدراسة في هذا البحث في البدء تستهدف الطائفة التي زهدت بعد مجون وتابت بعد انحراف، وعبرت عن إقلاعها عن المعاصي والآثام وأعلنت توبتها ورجوعها عن غيها في أشعارها، مع دراسة بعض متغيرات المجتمع العباسي السياسية والاجتماعية والعقائدية والاقتصادية، والتي كانت من شأنها انتشار تيار اللهو والمجون عند بعض الشعراء باعتبارهم شريحة من شرائح المجتمع خضعت لظروف معينة ومؤثرات واحدة، وكذلك دراسة تحول بعض المجان من الشعراء إلى التحلي بالزهد والاقتناع به والتفاخر بالإقلاع عن ألوان المجون التي عرفوا بها، وتبحث دوافع الزهد عند الشعراء المجان وتحلل تلك الدوافع المختلفة من شاعر إلى آخر وإبراز دور الحاكم والمحنة والشيب والاقتناع بالزهد.

وتقدم الدراسة بعد ذلك تحليلاً لعناصر الزهد في شعر المجان لتوضيح أهم أفكار التوبة والاستغفار في أشعار تلك الطائفة من الشعراء الذين اشتهروا بالمجون، وأخيراً اهتم البحث بتحديد بعض السمات الفنية البارزة لزهديات المجان، ببيان المعالم الجمالية لشعر التوبة والاستغفار عند المجان العباسيين كذلك اهتم بتحديد البنية الزهدية وشكلها والعلاقة بين جزئياتها.

العصر والمجون والزهد

أفرط قوم من الناس في العصر العباسي في اللذائذ يتحرونها ويتفننون في الاستمتاع بها وكلما ملوا نوعاً ابتكروا نوعاً، فأصبح العراق لاهياً، بل هو محط أنظار اللاهين، وسائر الأمصار إنما تقتبس من لهوه، والسبب في ذلك الثراء العريض، فبغداد كانت مصب أموال المملكة الإسلامية، والمال كل شيء في

اللهو، فالرقيق والشراب والفناء، إنما تكون حيث يكون الترف حيث يكون المال.

وكان العراق أكثر بلاد الله خليطاً وكان في العصر العباسي حاضرة الخلافة، ومقصد الأمم، وكان محط الراحلين ويجلب إليه أحسن الرقيق من كل جنس، ولهؤلاء جميعاً تاريخ في اللهو وتفنن في الترف، فكان ذلك معرضاً عاماً أخذ العراق أوفر نصيب منه، ولكن من الحق أن نقول: إن هذا الوصف ليس حال الناس جميعهم، فما كانوا كلهم أغنياء ولا كلهم هازلين، وما كان العالم الإسلامي كله العراق ولا كان العراق كله يحيا هذه الحياة.

لم تكن أموال الدولة موزعة توزيعاً متقارباً، ولا الفروق بين الطبقات فروقاً طفيفة، إنما هناك فارق سحيق بين الطبقات، فكثير من مال الدولة ينفق على قصور الخلافة والأمراء ورؤساء الجند، وهؤلاء ينفقون منه جُزافاً على المقربين من أدباء وعلماء ومغنين وجوارٍ، فقد أصبح العلماء والنابهون على درجة من الثروة، وعامة الشعب يغشو فيهم الفقر والبؤس، أنتجت هذه الحياة التي وصفنا حركتين في تاريخ العصر العباسي.

الأولى: ظهور الفرقة المتطوعة للنكير على الفساق في بغداد.

الثانية: حركة الزهد، ذلك أن قوماً يئسوا من الغنى ورأوا أن نفوسهم لا تطاوعهم للقرب من ذوي الجاه، أو حاولوا ذلك ففشلوا فلجؤوا إلى القناعة يرضون أنفسهم عليها، وقوماً عافت نفوسهم ما رأت من شهوات، وقوماً يئسوا من حب أو صدموا صدمة عنيفة في منصب أو جاه أو مال فلم يجدوا إلا الزهد يركنون إليه ويأنسون به ويتسلون به عما فقدوا، وقوماً زهدوا تديناً لما في الزهد من خفة المؤونة وسهولة الحساب.

فالأدب العربي في عصوره المختلفة ولا سيما في العصر العباسي يمثل صورة صادقة لحالة العصر الاجتماعية والسياسية والفكرية، يصوره في لهوه

وجده ويصور الاتجاه الذي يجمع بين الجد والعبث أو الجد بعد العبث، والتوبة بعد اقتراف الآثام، والأدب يتأثر بما يدور حوله، وتغذيه المتغيرات وتنمّيهِ المؤثرات، وتحركه العوامل المختلفة، ولقد تعاونت عوامل عديدة على انتشار التيار الماجن بين طبقات المجتمع في العصر كما تعاونت عوامل أخرى على ازدهار تيار التوبة والزهد بين بعض فئات المجتمع.

وتمثل البصرة والكوفة المجتمع العباسي في ذلك العصر أصدق تمثيل ففيها تيار المجون العابث، وفيها تيار الزهد الصادق، ففي أشعار شعراء البصرة تصوير لمجتمعهم الذي يحتفل بكل متضاد أو متناقض بين أسباب الحياة، منهم على سبيل المثال محمد بن يسير[1] فقد عاش حياته في البصرة، فانعكست صورتها على شخصيته الفنية وبرزت تناقضاتها في شعره، فقد عرف عنه الخلاعة والاستهتار والزهد والحكمة، إنه جامع الضدين، بدأ حياته ماجناً وانتهى زاهداً، وفي شعر بشار[2] تصوير لمجتمع البصرة الذي جمع بين النقيضين، العبث والحكمة،.

بين المجون والزهد:

من العوامل التي أدت إلى تغير صورة المجتمع العربي في العصر العباسي وأسهمت في خلق صورة تختلف عما كان عليها في الجانب الأول، عامل **الشعوبية وامتزاج** الحضارة العربية بالحضارات الأخرى مما ساعد على انتشار بعض المعايب التي لم يكن يعرفها المجتمع العربي قبل ذلك، وتعدُّ صدًى للجانب المنحرف من الخلق الفارسي، فقد فشت الشعوبية وأسرف أصحابها

(1) أبو جعفر محمد بن يسير البصري ت نحوه 220هـ ـ 835م مولى لبني أسد، وكان أديباً ظريفاً، شعره سهلٌ عذبٌ رائق يدور أكثره على الهجاء والوصف والخمر والمجون والحكمة، انظر طبقات الشعراء، ابن المعتز 279، الأغاني 12/ 124.

(2) أبو معاذ: بشار بن برد العقيلي بالولاء ولد 95هـ ـ 714م، وتوفي 167هـ ـ 784م أشعر المولدين، أدرك الدولتين الأموية والعباسية، له ديوان مطبوع انظر سير أعلام النبلاء 7/ 24، الوافي بالوفيات 15/ 135، الأعلام 2/ 52، معجم المؤلفين 3/ 44.

في كراهية العرب والحملة عليهم، والإسراف في المجون والتصريح بالتحلل من الخلق الكريم، والتحرر من كل قيد وقيمة والعبث بموروث العرب الخلقي.

ولقد بالغ الشعراء المجان في تصوير المجتمع العباسي وكأنه خلا من كل فضيلة، وكأنه وصم بكل نقيصة، وقد ظن بعضهم أن النساء كلهن ماجنات ولا عفيفة بينهن، جاء في الأغاني «أن مطيع بن إياس[3] مر بيحيى بن زياد[4] وحماد الراوية[5]، وهما يتحدثان فقال لهما، عم تتحدثان فأجابا: في قذف المحصنات، فقال: أوفي الأرض محصنة تقذفانها؟»[6] ويرمي بشار النساء جميعاً بالفحش بقوله[7]:

لا يُـؤيـسـنَّـكَ مِـنْ مُـخـدَّرَةٍ قَـوْلُ تـغـلِّـظُـهُ وإن جَـرَحـا
عُـسْـرُ الـنـسـاءِ إلـى مـيـاسـرةٍ والـصـعـبُ يـمكـن بـعـدمـا جَـمَـحَـا

ود. شوقي ضيف يرجع هذا الانغماس في اللهو والعبث فيه إلى «تحلل في الأخلاق، وبعضه يرجعه إلى الهروب من الحياة والتخفف من أعبائها الثقيلة، وساعد على ذلك اختلال في الموازين وفساد في القيم، شاعا في حياة الدولة وفي حياة الناس، وكأن الشك يتسلط على نفوس كثيرين وتتسلط معه ألوان الإلحاد والزندقة»[8].

---

(3) أبو سلمى مطيع بن إياس الكناني ت 166هـ/ 783م، شاعر من مخضرمي الدولتين كان ظريفاً حلو العشرة انظر: شعراء عباسيون 15 الوافي بالوفيات 20/ 640، تاريخ بغداد 13/ 225.

(4) أبو الفضل، يحيى بن زياد بن عبيد بن الحارثي ت 160هـ/ 776م شاهر ماجن، كان يضرب به المثل في الظرف، انظر الأعلام 8/ 145.

(5) أبو القاسم حماد بن أبي ليلى بن سابور بن المبارك ولد 95 ـ 156هـ/ 714 ـ 772م، شاعر عالم بأيام العرب وأشعارها، هو أول من لقب بالراوية، وجمع شعر الجاهليين انظر: الوافي بالوفيات 13/ 137، معجم الأدباء 15/ 258، الأعلام 2/ 217.

(6) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني عز الدين للنشر والطباعة 12/ 81.

(7) ديوان بشار بن برد شرح حسين حموي دار الجيل بيروت ط1، 1/ 456.

(8) تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني، د. شوقي ضيف دار المعارف مصر 458.

والجانب الثاني للمجتمع العباسي هو انتشار الزهد، فكانت المساجد والمكتبات العامة وتضرعات المتهجدين القانتين يستلهمون التقوى، ويعزفون عن الدنيا ومتاعها، وقد عُرف آدم بن عبد العزيز[9] بالمجون في شبابه، ولكنه عرف بالزهد في أواخر حياته، حتى عدَّ من الداعين إلى شعر التصوف وإلى مناجاة الذات الإلهية مناجاة الحب والعشق والهيام، لقد انتشر الزهد في المجتمع العباسي كردٍّ فعل طبيعي لتلك الحياة المتناقضة بين الثراء والفقر ولتلك الحياة الموغلة في الخلاعة والمجون.

وكما أسهمت المرأة في انتشار تيار المجون، فقد أسهمت أيضاً في تنشيط حركة الزهد، فانقطعت إلى عبادة الله وتصوفت لتعلن سخطها على ما يدور في الحياة الاجتماعية في العصر العباسي من لهو «وقد رفضت الزاهدات متاع الدنيا وما فيها من آثام ومجون، وعرفن شظف العيش وتقوى الله واستمعن إلى الوعاظ وإلى القصاص الذين يقصون سير الأنبياء والصالحين»[10] ويذكر الجاحظ في الحيوان عدداً من النساء الزاهدات في العصر منهن «رابعة العدوية[11] ورابعة القيسية[12] ورابعة الشامية[13]

(9) آدم بن عبد العزيز بن عُمر بن عبد العزيز حفيد الخليفة عمر بن عبد العزيز، كان في أول أمره ماجناً متهمكاً في الشراب حتى ضربه المهدي ثم إنه تاب فقر به المهدي إليه، كان شاعراً طريفاً جيد الشعر في الخمر خاصة، عُمِر طويلاً لعله أدرك هارون الرشيد توفي 160، انظر تاريخ بغداد 7/ 25، الوافي بالوفيات 5/ 294.

(10) صورة المرأة في الشعر العباسي، د. علي إبراهيم أبو زيد دار المعارف، القاهرة 24.

(11) رابعة بنت إسماعيل بن الحسن بن زيد بن علي بن أبي طالب العدوية مولدها في البصرة ووفاتها في القدس سنة 185هـ. صوفية عابدة تمكنت في معرفة دقائق التصوف مكاناً علياً. قال ابن الجوزي: رابعة العدوية ورابعة القيسية زاهدتان وهما من أهل المذهب البصري كان تحمسهما لحياة الزهد مؤدياً إلى معالجة أحوال صوفية مختلفة، وإلى البحث في فروض دقيقة في العمليات والعقائد، انظر: أعلام النساء، 1/ 430، وفيات الأعيان 1/ 323، شذرات الذهب، 1/ 193.

(12) رابعة القيسية: عابدة من عابدات البصرة ذات فصاحة وبيان انظر: أعلام النساء، 1/ 434.

(13) رابعة بنت سليمان الشامية بنت حكيم محدثة عابدة من محدثات وعابدت الشام انظر: أعلام النساء 1/ 433.

وزبدة بنت الحارث[14]»[15] فقد انقطعن لله وتجردن للعبادة والتهجد، وجمع العصر بين المجون والزهد وقام الشعراء بتصوير الحالتين، بعد أن أسهموا في التيارين. وهذا إيجاز للحالتين:

أولاً ـ المجون:

المجون: من مجنت الأرض مجوناً إذا صلبت وغلظت[16]، وهو ارتكاب الأعمال المخلة بالآداب العامة والعرف والتقاليد دون تستر أو استحياء، وهو أيضاً خلط الجد بالهزل وقلة الاستحياء، والماجن هو الذي يرتكب المقابح الرذيلة والفضائح المخزية، ولا يمنعه تقريع من يقرعه، ويكثر عندما ترقى الحضارة وتقل ضوابط الجد في المجتمع ويستريح الناس إلى الدعة والترف والاستمتاع بمباهج الحياة.

ومن المجون شعر الغزل الفاحش والغلاميات والخمريات والزندقة، ويرتبط المجون في بعض جوانبه بالزندقة ويرتبط بالشعوبية، وللمجون وسائله المختلفة عند الشعراء، وله حيله ونوادره وعباراته وأساليبه، وله صوره الهزلية الساخرة، وإذا كان الظرف أخف درجات المجون فإن الزندقة تعد أخطر تلك الدرجات وأشدها حدة، وقد يكون هناك رابط خفي بين طرفي المجون والزندقة، حين يدافع البعض عن أقوال الزنادقة من الشعراء، بأنهم كانوا يقولون ما يؤمنون به لقد جاءت الزندقة نتيجة دعاوى الغُلاة الإباحيين، الذين هيئوا لانتشار مثل هذه الآراء الجريئة.

فالشعوبية والزندقة يرتبط أحدهما بالآخر ارتباطاً فكرياً وثيقاً، وكلاهما يهدف إلى السخط على العرب وعلى دينهم وعلى أفكارهم، وكلاهما يقتدي

---

(14) زُبدَة بنت الحارث: عابدة من عابدات بغداد كانت على جانب عظيم من الزهد والورع توفيت في القرن الثالث للهجرة، انظر تاريخ بغداد، وأعلام النساء، 2/ 16.

(15) الحيوان للجاحظ تح عبد السلام هارون مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده مصر 5/ 198.

(16) لسان العرب، ابن منظور بولاق القاهرة، بدون تاريخ، «مادة مجن».

بحياة الفرس ويمجد حضارتهم وكلاهما حاول أن يدسَّ ما يدنس الدين العربي احتقاراً للعروبة، وإعجاباً بالأصول الفارسية، روى الطبري «أن عبد الكريم بن أبي العوجاء، لما أيقن أنه مقتول قال: لقد وضعت أربعة آلاف حديث، أحرم فيها الحلال وأحل فيها الحرام»[17] ويعلل الجاحظ تحوّل الشعوبية إلى الزندقة في قوله: «فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله، وإن أبغض تلك اللغة، أبغض تلك الجزيرة، ولا تزال الحالات تنتقل به، حتى ينسلخ من الإسلام، إذا كانت العرب هي التي جاءت به»[18].

وكان من أثر هذا الاختلاط انتشار الغزل المكشوف وانتشار الشعر الصريح العاهر، وتغنى بعض الشعراء بآفة التعلق بالغلمان وفي هذا قال أحمد أمين «إن المجتمع العباسي ورث كل ما كان في المجتمع الساساني الفارسي من أدوات لهو ومجون»[19].

ثانياً ـ الزهد:

الزهد في طبيعته عزوف عن الدنيا ومتاعها، وهجر لذائذها وترفها، إنه حركة تقشف وانصراف عن الحياة، ودعوة إلى التمسك بالصالح من الأعمال وأداء الفرائض، إن طبيعة الحياة التي عاشها المجتمع العربي في العصر العباسي من ترف وتمتع، تعد من أهم أسباب انتشار المجون، وتعد أيضاً من أبرز العوامل التي أدت إلى ازدهار تيار الزهد والتصوف.

ولعل مجتمعاً عربياً لم يعرف هذا التناقض مثلما عرفه المجتمع العباسي فقد ظهر الزهد انتكاساً لتيار اللهو العابث وتأييداً للجانب الجاد في الحياة الاجتماعية وتأكيداً لتيار الزهد الذي كان انعكاساً صادقاً في نفوس من نفروا من الحياة العابثة الماجنة التي تسود المجتمع، ومن الطبيعي أن يقوى تيار الزهد

(17) تاريخ الأمم والملوك المعروف بالطبري المطبعة الحسينية، القاهرة 6/ 232.
(18) الحيوان للجاحظ مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، 7/ 205.
(19) ضحى الإسلام أحمد أمين دار الكتاب العربي بيروت، 1/ 151.

ويشتد، كلما أغرق المجتمع في المجون، فقد كان الترف والبذخ والنساء والخمر والساقيات من أبرز الأسباب للثورة الاجتماعية، وكذلك سيطرة غير العرب على مناصب قيادية في المجتمع العباسي، فضلاً عن امتزاج العناصر الهدامة خلقياً وفكرياً وعقائدياً بين أفراد المجتمع، كل ذلك كان له أبلغ الأثر في أن ينصرف الكثيرون عن الحياة ومتاعها وإلى هجر لذائذها واعتناق الزهد.

إن حركة الزهد لم تكن متصلة بدوافع دينية فحسب، بل كانت نتيجة إلى انتشار روح اليأس، والخوف من المجاهرة بالآثام الفادحة في كثير من مناحي الحياة في المجتمع العربي في العصر العباسي، وكذلك الشعور بالظلم والإحساس باضطراب القيم واختلال موازين الحياة، فقد تولى المناصب غير أهلها، فهبط الرفيع وارتفع الوضيع، وفشت السعايات وعمت الوشايات، وزادت موجة الاضطراب والفوضى والفتن درجات ودرجات، فلجأ من لم يكن بيدهم أمر أو قدرة على التغيير أو المواجهة إلى التنسك وإلى البعد عن الحياة وفتنها.

إن مرارة الندم التي ألحت على كثير من شعراء المجون التي دفعتهم إلى نظم شعر في الزهد أو في التوبة والاستغفار، ولم يكن الشعراء المجان أصحاب أفكار خاصة أو أصحاب نظريات فلسفية أو مذاهب معينة، ولكن زهدهم هو الرجوع عن الكلمة الفاجرة، والتوسل بالعفيف من الألفاظ والصالح من الأعمال والطيب من السلوك، وقد جمعت شعراء المجون حتى في غمرة عصيانهم، ومضات إيمانية طارئة لم تلبث أن تزول ولكن بعد أن ذاقوا حلاوة الإيمان وحلاوة الإقلاع عن المعاصي، اندفعوا إلى الزهد وإلى الحكمة والتوبة.

إن الزهد الذي يعنى البحث به قد لا يقصد به السلوك العملي أو التطبيقي إنما يعني به التفكير والتوبة والبعد عن المعصية، وقد اختلفت البواعث إلى هذه التوبة عند الشعراء كما اختلفت مظاهرها، ويختلف الدارسون حول تسمية هذه النزعة التي أصابت المجان من الشعراء هل هي زهد؟ أو هي توبة؟

ومن الجوانب التي يهتم البحث بها، جانب الانتقال من المجون إلى الزهد فيه، ومن المجاهرة بالآثام إلى التوبة والاستغفار، وقد مثل هذا الاتجاه بعض الشعراء الذين عرفوا بالمجون وبالإسراف فيه وبالدعوة إليه، ثم أقبلوا على الزهد وسعوا إليه، وتابوا عن آثامهم واستغفروا ربهم، وهذه ليست قاعدة فلقد ظلت طائفة من الشعراء المجان لا تقلع عن معاصيها، ولم تعلن التوبة ولو لفظاً، ولم يحاولوا أن يتوبوا، وماتوا وهم غرقى في المجون وآثامه، وكان هناك شعراء زهاد لم يعرفوا المجون.

وسواءٌ كان الزهد عند الشعراء المجان سلوكاً وعملاً أم نفاقاً وادعاءً فإن الدراسة تهتم بدراسة المبررات التي دفعت المتهورين من الشعراء المجان إلى التوبة والاستغفار، وسوف يعنى البحث بمعرفة هذا الموروث الذي خلّفه لنا المجان بعد توبتهم، هل يعبر عن زهد حقيقي وعن نزعة صادقة في التقرب إلى الله؟ أو هو اتجاه فني شكلي، لا يعبر عن عاطفة دينية صحيحة.

دوافع الزهد عند الشعراء المجان:

اختلفت درجات الزهد عند الشعراء المجان واختلفت دوافعه في أشعارهم، إن تيار الزهد في المجتمع العباسي لم ينشأ نتيجة عامل واحد بل تعاونت عوامل كثيرة على ظهوره وعلى نموه وتطوره واستمراره، إن اختلاف طبيعة الشاعر واستعداده، واختلاف نزعاته النفسية فضلاً عن اختلاف الظروف التي سيطرت عليه، كان لذلك كله تأثير في توبة الشاعر واستغفاره وإقلاعه عن المجون، ومن المؤكد أن قوة الدافع، وقدرته على السيطرة وإلحاحه عليه كان سبباً في تقدير درجة زهد الشاعر أو درجة توبته بين الحدة والخفة، أو بين العمق والسطحية.

ويمكن أن نحدد أهم تلك الدوافع التي كان لها عظيم الأثر في زهد الشعراء المجان، بين دور الحاكم أو أمر الخليفة للشاعر بترك المجون وإجباره على التوبة، ومنها المحنة الخاصة، أو النائبة الشديدة التي نزلت بالشاعر فدفعته

إلى أن يزهد، ويهجر المجون والقول فيه، كذلك الشيب والعجز والشيخوخة، وعدم القدرة على الاستمرار في الحياة الماجنة، فاضطر الشاعر إلى هجر المجون فتاب واستغفر، ومن هذه الدوافع أيضاً، اقتناع الشاعر بفكرة التوبة، بعد أن شعر بالملل في حياته الماجنة، ومنها الإحساس بالنهاية، وقرب المصير وسيطرة فكرة الموت على بعض الشعراء، وربما كانت محاولة للتجديد الفني ورغبة الشاعر في أن ينظم في فن لم ينظم فيه.

أمر الخليفة

يأتي دور الخليفة في مقدمة هذه الدوافع التي دفعت شعراء المجون إلى الزهد، أو إلى نظم شعر التوبة والاستغفار، إن شخصية الخليفة وطبيعة الدور الذي فرض عليه أن يؤديه، وظروف المجتمع العباسي من حوله وكيان الدولة واستقرارها من الأمور التي شكلت دور الحاكم في الأخذ بشدة على يد المجان، أو ركوب موجة اللهو والمجون معهم، بل وتشجيعهم على المجون وقد يعاصر الخليفة أكثر من شاعر ماجن، ويكون له دور واضح وملموس في توبة واحد منهم سواء أكان مؤمناً بها، أو مدعياً، وقد يحدث أن يعاصر شاعر ماجن أكثر من خليفة، قد يشجعه أحدهم على الخوض في المجون، وقد يعنفه الآخر، فيضطر الشاعر إلى أن يجاري الحالتين، وقد يعود الشاعر إلى ما كان عليه من مجون بزوال السبب الذي أدى إلى تحوله من المجون إلى الزهد، وقد يبقى الشاعر على توبته التي دخل إليها مضطراً، بعد أن ذاق حلاوة الإيمان وبدأ في الندم على حياته الأولى الفاجرة الماجنة.

كان للخليفة المنصور تأثير مباشر في بعض الشعراء المعاصرين له منهم إبراهيم بن هرمة[20] وأبو دلامة[21]، لقد أجمعت المصادر على مجون ابن

(20) إبراهيم بن علي بن سلمة بن عامر بن هُديل ولد سنة 95هـ في المدينة، كان شاعراً مكتسباً، وشعره جزل الألفاظ متين السبك قديم المعاني، كان شغوفاً بالشراب مشتهراً به توفي سنة 170هـ انظر: الفهرست 159، طبقات ابن المعتز 20 الوافي بالوفيات، 6/ 59، الأعلام 1/ 50.

(21) أبو دلامة هو: زند بن الجون كوفي أسود مولى لبني أسد، قال الشعر ونبغ فيه في دولة =

هرمة، وعلى حبه للخمر وتعلقه بها، وعلى استخفافه بقومه وعلى استهزائه بالحياة حوله، وعلى شغفه بالسكر ورغبته في أن يعيش سكراناً لا يفيق[22]، جاء في الأغاني «إن أحلى ما يتمنى ابن هرمة سماعه صياح الصبية خلفه يا سكران يا سكران، وهو يترنح في الطرقات»[23] ومن قول ابن هرمة في ذلك[24]:

أسأل الله سكرة قبل موتي وصياح الصبيان يا سكران

وإذا أعوزه ثمن الخمر باع ثيابه، ورد في زهر الآداب موقف المنصور منه عندما مدحه، طلب منه المنصور أن يسأله حاجة، فطلب منه أن يكتب إلى عامل المدينة ألا يقيم عليه الحد إذا جيء به سكراناً، فيقول له أبو جعفر المنصور «هذا حد من حدود الله تعالى لا يجوز أن أعطله، فيقول ابن هرمة: احتل يا أمير المؤمنين، فيكتب المنصور إلى عامل المدينة، من أتاك بابن هرمة سكراناً فاجلده مائة جلدة، واجلد ابن هرمة ثمانين، فكان الشرطة يجدون ابن هرمة مطروحاً من السكر في سكك المدينة فيقولون: من يشتري مائة بثمانين»[25].

ويشتد أمير المدينة الحسن بن زيد في طلب ابن هرمة، ويبدو أن أمر المنصور كان مداعبة فيقول أمير المدينة لابن هرمة «لست كمن باع لك دينه رجاء مدحتك، أقسم لئن أوتيت بك سكراناً لأضربنك حداً للخمر وحداً للسكر، ولأزيدن موضع حرمتك مني، فليكن تركك لها لله عز وجل»[26]

= بني العباس، كان رجلاً فيه دعابةٌ وظرفٌ متهماً بالزندقة مولعاً بالشراب وكان شاعراً مكثراً، سهل التركيب عذب الكلام ظاهر المعنى توفي سنة 161هـ 777م، انظر: الوافي بالوفيات 14/ 216، الأعلام 3/ 49، معجم المؤلفين 4/ 185.

(22) الأغاني، للأصفهاني، مصدر سابق 4/ 143.

(23) المصدر السابق، 4/ 113.

(24) المصدر السابق، 4/ 113.

(25) زهر الآداب وثمر الألباب الحصري القيرواني تح علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي مصر 88 وانظر: الأغاني 4/ 105.

(26) العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، تح علي شيري دار إحياء التراث العربي 6/ 355.

وينظم ابن هرمة في هذ الموقف شعراً يصور فيه توبته التي أجبر عليها ويصور زهده المصطنع ورفضه بقوله[27]:

نهاني ابن الرسول عن المدام ... وأدبني بآداب الكرام
وقال لي اصطبر عنها ودعها ... لخوف الله لا خوف الأنام
وكيف تصبري عنها وحتى ... لها حب تمكن من عظامي
أرى طيف الخيال على خبث ... وطيب العيش من خبث الحرامِ

ومن الشعراء الذين يربطهم بالمنصور علاقة الشاعر أبو دلامة، كان مطبوعاً ظريفاً كثير النوادر في الشعراء، إن حدة درجة المجون عند أبي دلامة، لم تجعله يمتثل لأمر المنصور، وإن توبته التي تظاهر بها أحياناً لم تكن صادقة موقف المنصور منه لم يتغير عن موقفه من ابن هرمة، فالخليفة المنصور يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويدعو الشاعر الماجن إلى الإقلاع عن المجون، دون أن يتشدد في ذلك، أو يعاقبه العقاب الرادع، يبدو أنه كان في حاجة إلى الشعراء يمدحونه، وربما كان لهم فضل في قتال بني أمية بالهجاء، ولكن المنصور لم يترك باب المجون مفتوحاً، بل كثيراً ما نصح بالتوبة، وأمر بها.

ويأتي الخليفة المهدي، ويمثل مكانة بارزة بين خلفاء بني العباس، فلقد كان له تأثير ملموس وواضح في توبة الكثيرين من الشعراء المجان، إن شعراء المهدي كثيرون، اتسع صدره لهم كما اتسع مجلسه وشملهم كرمه، فقد كان محباً للأدب، ولم يكن موقفه من الشعراء المجان أمراً فحسب، بل تهديداً صارماً، ومن الشعراء الذين تابوا وأقلعوا عن مجونهم، الشاعر الحسين بن مطير[28] أحبه المهدي وقربه إليه ورأى فيه أداة قوية تمدح العباسيين، ويزداد

(27) المصدر السابق، 6/ 355.

(28) الحسين بن مطير بن مُكَملٍ ولد سنة 95هـ كان في زيه وكلامه يشبه مذاهب الأعراب وهو شاعر من مخضرمي الدولتين، كان حاذقاً في وصف السحاب توفي نحو 164هـ 786م، انظر سير أعلام النبلاء 7/ 81، الوافي بالوفيات 13/ 63، والأعلام 2/ 260.

الحسين بن مطير قرباً من المهدي لأن في شعره حكمة وخبرة ناضجة بالحياة، ويدعو إلى تجنب الحرام ويعجب المهدي بقوله[29]:

وقد تغدر الدنيا فيضحى غنيها ... فقيراً ويغنى بعد بؤس فقيرها
فلا تقرب الأمر الحرام فإنه ... حلاوته تفنى ويبقى مريرها
وكم قد رأينا من تغير عيشه ... وأخرى صفا بعد اكدرار غديرها

ولصالح بن عبد القدوس[30] أشعار كثيرة في الحث على الزهد وتجنب الدنيا والترغيب في الجنة والدعوة إلى طاعة الله عز وجل والتحلي بمحامد الأخلاق وذكر الموت والعبر، وكان معظم شعره أمثالاً وحكماً، ومنه ما يرويه ابن المعتز بقوله[31]:

تأوَّبني همٌّ فبِتُّ أخاطبُهْ ... وبِتُّ أُراعِي النجمَ ثم أُراقِبُهْ
لِمَا رابَني من رَيْب دهرٍ أَضرَّني ... فأَنيابُه يَبْرينني ومخالِبُهْ
وأسهرني طول التفكّر إنَّني ... عجبت لدهر ما تَقَضَّى عجائبهْ

ويبدي المهدي إعجابه بعلم صالح بن عبد القدوس وبغزارته، ولا يمنعه هذا الإعجاب من أن يأمر بقتله ويصلبه لزندقته، ويتعجب ابن المعتز من اتهام صالح بالزندقة ويورد بعض أشعاره التي تدل على زهده، وعلى توبته وعلى عدم إصراره على ذنبه من مثل قوله[32]:

فوحقِّ من سَمَك السماء بقدرةٍ ... والأَرضَ صَيَّر للعباد مِهادَا
إنَّ المُصِرَّ على الذنوب لَهالِكٌ ... صدَّقْتَ قولي أَو أردتَ عنادا

(29) الأغاني للأصفهاني، 14/ 112.
(30) صالح بن عبد القدوس بن عبد الله بن عبد القدوس الأزدي كان يجلس في مسجد البصرة للوعظ، فلما اشتهر أمره بالزندقة استقدمه المهدي وقتله سنة 167هـ كان مكثراً مجيداً في الشعر، له في الزهد والترغيب في الجنة، والأمر بمحاسن الأخلاق ما ليس لأحد، انظر: الوافي بالوفيات 16/ 260، والأعلام 3/ 192.
(31) طبقات الشعراء ابن المعتز مصدر سابق، 91.
(32) المصدر السابق، 91.

ومن أشهر المجان من الشعراء الذين كان لهم دور بارز مع الخليفة المهدي الشاعر بشار بن برد، وقد تعددت الاتهامات التي وجهت إليه وتضاربت الآراء حول مواقفه مع المهدي، واختلفت الروايات حول هذه الاتهامات التي أثيرت حول عقيدة بشار، فقد عاش في مجتمع يضم العلماء والمفكرين والوعاظ والقصاص، وكان يجلس إلى واصل بن عطاء[33] ويستمع إليه ويحاوره، وكان يمدح المهدي ويحضر مجلسه، وكان يأنس به ويجزل له في العطاء، وقد وعظ بشار المهدي في موت ابنته بقوله: «يابن معدن الملك، وثمرة العلم، إنما الخلق للخالق، وإنما الشكر للمنعم ولا بد مما هو كائن، كتاب الله عظتنا ورسول الله أسوتنا، فأية عظة بعد كتاب الله وأية أسوة بعد رسول الله ﷺ مات فما أحسن الموت بعده»[34].

ومن أقوال بشار أيضاً: «وإني الآن لفي زمان، ما أرى فيه عاقلاً حصيفاً، ولا فاتكاً ظريفاً، ولا ناسكاً عفيفاً، ولا جواداً شريفاً، ولا خادماً نظيفاً ولا جليساً خفيفاً ولا من يساوي على الخبرة رغيفاً»[35] ويتمثل في قوله[36]:

فما الناس بالناس الذين عرفتهم ولا الدار بالدار التي كنت أعرف

إن هذه اللمحات التي بدت في نثر بشار وفي شعره قربته من المهدي في بَدْء تعارفهما وجعلته من جلسائه، لكن بشاراً أسرف في غزله الفاجر فأمره المهدي بالكف عن هذا اللون من الغزل المكشوف حتى قيل أن من أسباب قتل

(33) واصل بن عطاء أبو حذيفة، البصري الغزال 80 ـ 131هـ رأس المعتزلة وكبيرهم وخطيبهم، من مؤلفاته: كتاب التوبة، انظر: الوافي بالوفيات 27/ 419، الأعلام، 8/ 108، ومعجم المؤلفين 13/ 156.

(34) تاريخ بغداد، البغدادي دار الكتاب العربي بيروت 7/ 118.

(35) زهد المجان في العصر العباسي، د. علي إبراهيم أبو زيد دار الثقافة 146.

(36) المصدر السابق، ص146.

المهدي له قوله في الغزل، والصحيح عند أهل العلم أن المهدي قتله بهجوه يعقوب بن داود[37] وزير المهدي في قوله[38]:

لاَ يَـأيَسَـنَّ فَـقـيـرٌ مِـنْ غِـنَـى أبَـداً بـعـد الـذي نـال يـعـقـوب بـن داوُودِ

ومما جاء فيها:

يا أيُّها النَّاسُ قَدْ ضَاعَتْ خلافَتُكُم إنَّ الـخَـلِـيـفَـةَ يَـعْـقُـوبُ بـنُ داوودِ

ضَاعَتْ خِلاَفتُكُم يا قَوْم فَالتَمِسُوا خَـلـيـفَـةَ الله بَـيْـنَ الـزّقِّ والـعُـودِ

ورد في الأغاني «قدم بشار على المهدي بالرصافة فدخل عليه في البستان فأنشده مديحاً فيه تشبيب فنهاه المهدي عن التشبيب»[39] وقد أشار بشار إلى ذلك بقوله[40].

قَـال الـخَـلـيـفـةُ لا تَـنْـسِـبْ بـجَـارِيَـةٍ إيَّـاكَ إيّـاكَ أن تَـشْـقَـى بـعِـصْـيـانِ

لقد نجح بشار في جعل نهي الخليفة موضوعاً جديداً من موضوعات شعره، يظهر فيه امتثاله لأمر الخليفة بالتوبة، فقد جعل من مدح المهدي جانباً بارزاً من جوانب هذا اللون الجديد بقوله[41]:

نـهـاني أميرُ الـمؤمنين عـن الـصِّـبـا فـدُون الـغـوانـي عَـوْمَـةٌ لا أعُـومُـهـا[42]

إن العهد الذي أخذه المهدي على بشار كان غليظاً موثقاً لم يستطع التحلل منه، ومن الواضح أن المهدي كان يفهم نفسيته ويتوقع احتمال عودته إلى المجون، فيعيد المهدي عليه أمره أكثر من مرة، وبشار يؤكد التزامه الدائم، فقد تاب عن مجونه، وزهده فيه بقوله[43]:

---

(37) يعقوب بن داود بن عمر بن طهمان مولى عبد الله بن خازم، استوزره المهدي وكتب له توقيعاً بأنه أخاه توفي سنة 181هـ.

(38) ديوان بشار مصدر سابق، 2/ 155.

(39) الأغاني، مصدر سابق، 3/ 57.

(40) ديوان بشار، مصدر سابق، 2/ 532.

(41) الديوان، 2/ 516.

(42) نهاني: حذّرني ومنعني، أمير المؤمنين، الخليفة المهدي، الصبا: هنا بمعنى التشبيب بالنساء.

(43) المصدر السابق، 1/ 448.

وقدْ تُبْتُ فاقْبل توْبتي يابن هاشِم فإن الّذي بيْني وبينك مُدْمَجُ[44]

ويصور توبته بعد أن يئس من العودة إلى المجون فيكثر من الموعظة في شعره ومن الاستغفار عن ذنوبه، فإن الموت قريب منه وليس للإنسان إلا ما قدم من فعل الخير وإن المجون الذي ارتكبه كان عن جهالة، وها هو ذا يزهد في مجونه ويتوب عنه في مثل قوله[45]:

حَتَّام أدْعُو الصِّبَى وأتْبَعُهُ والمَوْتُ دَانٍ والله بالرَّصَدِ[46]؟
كُلُّ امْرِئٍ تارِكٌ أحبَّتَهُ وصائرٌ تُرْبَة من البلدِ[47]؟
لا تَعْجَل لأمْرَ قَبْلَ مَوْقِتِه ما حُمَّ آتٍ والنَّفْسُ في كَبَدِ

وقد قال في الحكمة: مهما كان الطبيب حاذقاً، فلن يستطيع ردَّ حكم الموت عمن جاء أجله، ذلك أن الطبيب ذاته ربما يموت بالمرض الذي شفَى كثيراً من المرضى أصيبوا به، فالخالق وحده صاحب الأمر والنهي في ذلك، ولا رادّ لحكمه وقضائه في قوله[48]:

إن الطبيب بِطِبّه ودوائه لا يستطيع دِفاع مقْدُورٍ أتى
ما للطبيب يموتُ بالدّاءِ الذي قد كان يُبْرى مثله فيما مضى
إلا لأنْ الخلق يَحْكُم فيهم من لا يُرَدُّ ولا يُجَاوَزُ ما قَضَى

ومما روي لِبشار، زهده في المال قوله[49]:

إني وَإنْ كان جَمْعُ المال يُعْجبُني ما يعْدلُ المال عندي صحَّة الجسدِ
المال زَيْنٌ وفي الأولاد مَكْرُمَةٌ والسُّقم يُنْسيكَ ذكْرَ المال والولدِ

(44) مدمج: محكم الربط والفتل.
(45) المصدر السابق، 1/ 526.
(46)(47) لماذا الحب، والمنية قريبة، والله بالمرصاد لعباده؟ فكل امرئ لا بد أنه ميت ومفارق أحبته إلى الرمس.
(48) المصدر السابق، 1/ 81.
(49) الديوان، 2/ 188.

وأبو العتاهية[50] من شعراء المهدي، الذين كان لهم دور معه، وكان للخليفة تأثير في زهده، وتحول من المجون إلى التوبة والاستغفار، وأبو العتاهية لم يكن شاعراً للزهد فحسب، بل كان ماجناً قبل أن يزهد ثم تاب إلى ربّه، واستغفر من ذنبه، وهجر القول في الغزل وفي الخمر وأكثر من نظمه في الزهد وفي القناعة، ويتولى الهادي فيعود أبو العتاهية إلى مجونه وشربه وغزله ويناديمه، فمن قوله في الغزل[51]:

ولقد صبوتُ إليك، حتى صارَ مِنْ فرط التصابي
يجد الجليس إذا دنا ريح التصابي في ثيابي

ويلتقي أبو العتاهية عُصْبَةً من الشعراء المجان ويلهو أبو العتاهية كما يلهون، ويشرب معهم الخمر في مجالسهم ويصور أبو العتاهية هذه الفترة من حياته الماجنة قبل أن يزهد فيقول[52]:

طالما احلولى مَعاشي وطابا طالما سَحَّبْتُ خلفي الثيابَا
طالما طاوعتُ جَهْلي وعقلي طالما نازعتُ صَحبي الشَرابَا
طالما كنتُ أُحبّ التّصابي فرماني سَهْمُهُ وأصابا

ويتولى الخلافة الرشيد، فيلزمه ولا يفارقه «وكان الرشيد يجري عليه في كل سنة خمسين ألف درهم، سوى الجوائز والصلات السنية»[53].

ويصارح الرشيد أبا العتاهية بما نسب إليه من زندقة[54] فقال: يا سيدي كيف أكون زنديقاً وأنا القائل[55]:

---

(50) أبو العتاهية: اسماعيل بن القاسم، ولد سنة 130هـ، كان في أول أمره فقيراً يبيع الخزف «الفخار» فتقم على الأغنياء، مدح المهدي وتكسب بالشعر، ومع أنه ترك اللهو ولزم الزهد فإنه ظل نجيلاً توفي سنة 211هـ 826م. انظر سير أعلام النبلاء، 10/ 196، الوافي بالوفيات، 9/ 185، الأعلام 1/ 321، معجم المؤلفين، 2/ 285.

(51) ديوان أبي العتاهية، دار بيروت للطباعة والنشر 69.

(52) المصدر السابق، 52.

(53) الأغاني، مصدر سابق، 3/ 152.

(54) المصدر السابق، 3/ 138.

(55) الديوان، 122.

فَيا عَجَباً كَيفَ يعصِى الإلـ ـهَ أم كَيفَ يَجحَدُهُ الجاحِدُ
والله في كل تحريكَةٍ، وفي كلّ تسكينةٍ شاهِدُ
وفي كلّ شيءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلّ على أنّهُ الواحِدُ

كان أبو العتاهية شاعراً يعيش وسط تيارات عنيفة ومختلفة من المذاهب، ويقاوم تيارات داثية نابعة منه، دفعته إلى اتخاذ الزهد شعاراً له في حياته، وإلى خلع رداء المجون، ولم يكن أمر الخليفة هو السبب الأوحد في زهد أبي العتاهية، ولكن يضاف إليه هجر عتبة، جارية المهدي له، وفشله في حبها، وكبر سنه، ورغبته في التوبة وفي الزهد، وأيضاً رغبته في أن يمثل جانباً فنياً من جوانب التعبير في الشعر العربي، فمن تسبيحاته وتحميداته قوله[56]:

إلهي لا تُعَذّبني فَإنّي مُقِرٌّ بالّذي قَدْ كانَ مِنّي
وَما لي حيلة إلاّ رَجائي وَعَفوُكَ إن عفوْتَ وحَسنُ ظنّي
فكَمْ من زَلّةٍ لي في البَرايَا وَأنْتَ عَليّ ذو فضْلٍ، وَمَنّ

ومنها أيضاً قوله[57]:

حَلّ رَبٌّ أحَاطَ بالأشْيَاءِ واحِدٌ ماجِدٌ بغَيرِ خَفَاءِ
عالمُ السّرّ كاشِفُ الضُّرّ يَعفُو عَنْ قَبيحِ الأفعالِ يوم الجزاءِ
ما على بابه حِجابٌ ولكن هُوَ مِن خَلقِهِ سميعُ الدُّعاءِ

وأبو نواس[58] لم تطل مدة بقائه مع الرشيد، ولم يكن للرشيد دور واضح في زهده وفي تركه المجون، وقد كثرت الروايات حول أبي نواس حتى

(56) المصدر السابق، 425.

(57) المصدر السابق، 16.

(58) أبو نواس: الحسن بن هاني ولد 140هـ عربي من جهة الأب فارسي أو سندي من جهة الأم، أبصر والبه بن الحباب أبا نواس عند عطار فأعجب به فأقنعه بأن يرافقه إلى الكوفة ليخرجه في الشعر، ومع أن والبه قد أفسد أبا نواس فإنه اكتشف مواهبه وصقل شاعريته، توفي أبو نواس سنة 199هـ، انظر: سير أعلام النبلاء 9/ 279، الوافي بالوفيات، 12/ 283، الأعلام 2/ 225، ومعجم المؤلفين 3/ 300.

صار شخصية شعبية تختلف عن الشخصية الأدبية التاريخية، ويستخلصه الأمين نديماً له، فأكثر من مديحه والإشادة به، ولكنه تجاوز الحد المعقول في مجونه، فنهض الأمين ليجبره على التوبة، وهذا من الدوافع التي أجبرت الشاعر على نبذ المجون وإعلان توبته، لكنه لم يكن صادقاً في توبته ولطالما تاب ثم رجع إلى غيه ثانية، وتعددت المرات التي يفيق فيها الشاعر ويصحو إلى نفسه، فتكثر الحكمة والعظات في ثنايا أقواله[59].

ويهجر أبو نواس المجون ويتجنب القول في الخمر لفترة ما، ولم يكن مؤمناً بذلك أو مقتنعاً، ويحتال على القول في الخمر، ويعلن عن عجزه في أن يتحمل هجر المجون، ويصرح بأن توبته لفظاً لا سلوكاً، وكان يخشى عين الخليفة التي ترصده دائماً ويخشى العودة إلى الحبس ثانية، وربما القتل إذا عاد إلى مجونه يقول في ذلك[60]:

عين الخليفة بي موكلة ... عقد الخدار بطرفها طرفي
صحَّتْ علانيتي له وأرى ... دين الضمير له على صرف
ولئن وعدتك تركها عدة ... إني عليك لخائف خُلْفي

لقد انتشرت أشعار أبي نواس في المجون وفي الخمريات والغلاميات وفي النساء، وفي الاستخفاف بالدين، وكأنه حمل ذنوب الدهر على كاهله، وقد اتهم بالزندقة فهو القائل معلناً عصيانه[61]:

يا أحمد المرتجى في كل نائبة ... قم سيدي نعص جبار السموات

ويتخذ من شرب الخمر وسيلة لنسيان الصلاة، والإهمال في تأديتها بقوله[62]:

---

(59) زهد المجان في العصر العباسي، د. علي إبراهيم أبو زيد، دار الثقافة، 103.
(60) زهر الآداب، الحصري 1/ 414.
(61) ديوان أبي نواس تح إسكندر آصاف دار العرب للبستاني 240.
(62) الديوان مصدر سابق، 263.

إذا ما دنا وقت الصلاة رأيتهم يحثونها حتى تفوتهم سكرا

ويلوم المجان أبا نواس على تركه المجون، وتعاتبه الجواري ويحاول الجميع رجعته إلى مجونه، لكنه يرفض لوم اللوام، فلا يعود إلى مجونه امتثالاً لأمر الخليفة، ويرد على لائمته بأنه قد باع الجهل حيث يباع سمعاً وطاعة لأمر أمير المؤمنين بقوله[63]:

أَعاذِلُ بِعْتُ الجَهْلَ حَيْثُ يباعُ وأبرزتُ رأسي ما عَلَيْهِ قِناعُ
نهاني أمير المؤمنين عن الصِّبا وأمر أمير المؤمنين مطاعُ
وَلَهوٍ لتأنيبِ الأمين تركتهُ وفيه لِلاهٍ منظر وسماعُ
قصرت عليه النفسَ دون مدامةٍ هي اليوم حربٌ وهي أمسِ شياعُ

يبدو من أشعاره التي نظمها امتثالاً لأمر الخليفة، أنه لم يكن مقصوراً على الخمر فحسب، بل كان على المجون والغزل الشاذ والاستخفاف بأمور الدين، فيدعي توبة مصطنعة، كانت الدافع إلى زهده والباعث لتوبته.

ومما لا شك فيه أن الفترة التي قضاها هاجراً المتعة وممارسة المجون، ساعدته على أن يدخل دائرة التوبة مقتنعاً، فقد ألزم نفسه بالزهد فترة، فذاق حلاوته مجبراً، وتعود هجر اللذات مرغماً، فتمرس على أن يهجرها، فكان أمر الخليفة له من الدوافع المساعدة على زهده، بالإضافة إلى دوافع أخرى أهمها كبر السن، والعجز عن السير في طريق العصيان، والشعور بالنهاية، والرغبة الصادقة في التوبة والإحساس الحقيقي بالندم.

ولقد استطاع أبو نواس أن يستغل أمر الخليفة، ويجعل الخمر والمجون من موضوعات شعره، التي يضيف بها بعداً جديداً يضاف إلى الأبعاد الفنية لخمريّاتِهِ. وعلي بن جبلة المعروف بالعكوك[64]، شاعر من الشعراء

(63) المصدر السابق، 168.

(64) علي بن جبلة بن عبد الله الأنباري المعروف بالعكوك ولد في بغداد سنة 160هـ أكمه تردد على حلقات الأدباء فبرع في الأدب والشعر، شاعر مطبوع مجيد، أحد فحول الشعراء فصيح =

المكفوفين، عرف عنه المجون، فلم يمنعه العمى من أن يكون شاعراً ماجناً، فتغنى باللذة الحسية واستخف بالقيم الدينية، وبالغ في مدح القادة إلى حد وصل به إلى البعد عن دائرة الإيمان، وقد عرف عن العكوك المجون والاستهتار، وحب الخمر، ومن أشعاره التي يصور فيها تعلقه بالخمر، وأنها شغله الشاغل وهمه الوحيد قوله[65]:

نعمَ عونُ الفتى على نُوَبِ الدَّهـ ـرِ سماع القِيانِ والعيدانِ
وكؤوس تجري بماء كروم ومطيُّ الكؤوس أَيدي القيانِ
من عُقار تميتُ كلَّ احتشام وَتَسُرُّ الندمان بالندمان
وكأنَّ المزاجَ يقدحُ منها شروراً في سبائط العقيان
فاشرب الراح واعص من لامَ فيها إنها نعم عدَّةِ الفتيانِ
واصحب الدهر بارتحال وحلٍّ لا تخف ما يجره الحادثانِ

إن المجون الذي دفع المأمون إلى قتل علي بن جبلة كما روي[66]، لم يكن مقصوراً على الخمر وشربها والنظم فيها، ولكن مدائح العكوك ومبالغته فيها، كانت تثير الخليفة المأمون، حين يصور الشاعر الممدوح محمد بن حميد الطوسي[67] بأنه المسير للأحداث وأن الله سبحانه وتعالى قد خلقه من مادة غير تلك التي خلق منها البشر بقوله[68]:

أنت الزمان الذي يجري تصرُّفُه على الأنام بتشديد وتليينِ
لو لم تكن كانت الأيام قد فَنِيَت والمكرماتُ وماتَ المجد مذ حينِ

= الألفاظ لطيف المعاني توفي سنة 213هـ. انظر: وفيات الأعيان 1/ 520، سير أعلام النبلاء 1/ 192 والأعلام4/ 268، شذرات الذهب 2/ 30، الأغاني 18/ 100.

(65) الأغاني للأصفهاني 18/ 110، 111.

(66) المصدر السابق، 18/ 114.

(67) محمد بن حميد الطاهر الطوسي، من كبار قواد المأمون العباسي، كان جباراً، فيه قوة وبطش، وكان المأمون يند به للمهمات، توفي سنة 214هـ 829م تقريباً، انظر: شذرات الذهب 4/ 194، الوافي بالوفيات، 3/ 38، النجوم الزاهرة 2/ 190، الأعلام، 2/ 283.

(68) الأغاني للأصفهاني، 18/ 108.

صـوَّرك الله مـن مـجـدٍ ومـن كـرمٍ وصـوَّر الـنـاس مـن مـاء ومـن طـيـنَ

ومما أسرف فيه فكفر أو قارب الكفر، تصوير ممدوحه أبا دُلف[69] بالدهر وبالزمان في قوله[70]:

يا بن الأكارم من عدنان قد علموا وتـالـدُ الـمـجد بيـن الـعـم والـخـال
وناقل الناس من عدم إلى جدةٍ وصارف الدهر من حالٍ إلى حال
أنـت الـذي تـنـزل الأيـامَ مـنـزلـهـا وتُمسك الأرض عن خَسفٍ وزلزال
وما مَدَدتَ مَدَى طرفٍ إلَى أحد إلا قـضـيـتَ بـآجـالٍ وآمـال

فقال المأمون: إني لا أستحل دمك بهذا القول ولكني أستحله بكفرك وجرأتك على الله سبحانه وتعالى إذ تقول في عبد ضعيف مهين وتسوى بينه وبين رب العزة[71]:

إن مبالغة العكوك في مدائحه، أثارت المأمون ولكنها لم ترق به إلى درجة الكفر التي اتهمه بها البعض، إنما عبثه ومجونه دفعه إلى أن يبالغ في خلع الصفات على ممدوحيه، وهو من الشعراء الذين كان للخليفة دور في توبتهم وفي رجوعهم عن المجون، وفي تزهدهم.

لم يترك المأمون هذا الشاعر الماجن يستخف بأمور الدين في مدائحه، فهرب من تهديد المأمون له.

ولكن بعض أشعاره تبدو فيها لمحات من الحكمة والتوبة، فقد دُفع إليها حين هدده الخليفة وجدَّ في طلبه، ووجدنا في أشعاره الإيمان بالآخرة وبالحساب والعقاب من ذلك قوله[72]:

---

(69) أبو دلف: القاسم بن عيسى بن إدريس من بني عجل، كان كريماً شجاعاً من قواد المأمون ثم المعتصم، وكان من أصحاب الصنعة في الغناء، ويغني غناءً حسناً، وهو شاعر مجيد حسن البديهة حاضر الجواب، توفي سنة 226هـ 839م، تقريباً، انظر: وفيات الأعيان، 2/ 171، شذرات الذهب، 2/ 45.

(70) ديوان المعاني، أبو هلال العسكري، دار الجيل، بيروت 1/ 28.

(71) شذرات الذهب، 2/ 31.

(72) الأغاني 18/ 112.

عسى فرج يكون عسى نعلل أنفسنا بعسى
فلا تقنط إذا لاقيـ ـت هماً يقبض النفسا
فأقرب ما يكون المر ء من فرج إذا أيسا

وقد بكى شبابه ومدح شيبه، وعقد مقارنة بين الشباب والشيب وترحم على الصبا والشباب في قوله[73]:

لم أر كالشَّيب وَقاراً يُجتوى وكالشباب الغضِّ ظلاً يُستلب[74]
كان الشبابُ لمةً أزهى بها وصاحباً حراً عزيز المصطحب
إذ أنا أجري واثباً في غيه لا أعتب الدهرَ إذا الدهرُ عتب
أَبعدُ شَأْوِ اللَّهوِ في إجرائه وأقصد الخود وراء المحتجب

ويصور الدهر ورجعته عن المجون وتوبته وقرب الردى وسهام الزمان يرمي بها الإنسان في قوله[75]:

وأرى الليالي ما طوت من شرتي ردته في عظتي وفي إفهامي
وعلمت أن المرء من سنن الردى حيث الرمية من سهام الرامي

عوامل التوبة

المحنة: تعددت العوامل التي أسهمت في دفع الشعراء المجان إلى هجر المجون، وتعد المحن والنوازل التي ألمت ببعض الشعراء المجان، من أبرز هذه العوامل التي دفعت بعضهم إلى الزهد، وإلى الندم على الماضي، والتوبة والإكثار من الاستغفار، وتباينت حدة المصائب التي أصابت الشعراء المجان، فقد جعلت هذه المصائب المجان، يرون الحقيقة بعين تختلف عن تلك التي كانوا ينظرون بها إلى الحياة في لهوهم، وعبثهم، قبل الكوارث التي ألمت

(73) الأغاني للأصفهاني، 18/ 101، 102.

(74) روى صاحب ديوان المعاني اللغوي، الأديب أبو هلال العسكري هذه القصيدة، ص50، باختلاف كثير عما ورد في كتاب الأغاني.

(75) نهاية الأرب في فنون العرب، النويري دار الكتب المصرية 6/ 89.

بهم، فأصبحوا يرون حقيقة الحياة ويتأملون العواقب ويتدبرون الأمور، ويراقبون من حولهم، ويرتقبون المصير، فقد يجمع الشاعر في تحوله من المجون إلى الزهد بين أكثر من دافع، حسب ظروفه الخاصة أو قد يكون مع أمر الخليفة محنة الكبر والعجز والشيخوخة والشيب، وقد تكون المحنة فلسفة واعتقاداً بالزهد، واقتناعاً بالتوبة، وتنوعت ألوان المحن التي صادفت الشعراء المجان، بين موت عزيز أو فقد صديق أو تقييد حرية أو زوال نعمة، أو الغيرة والشك في المحبوبة.

فمن الشعراء الذين تابوا عن مجونهم وتغيرت طريقة حياتهم الشاعر ديك الجن الحمصي[76] الذي تحول من المجون إلى الزهد، ولزم داره لا يقابل أحداً وذلك للمحنة التي ألمت به، فقد تعرف على فتاة نصرانية جميلة فيدعوها إلى الإسلام فتلبي الدعوة وتسلم على يديه فيتزوجها، ويرحل مده خارج حمص ويدبر له ابن عمه مكيدة فيذيع في الناس أن زوجة ديك الجن «ورداً» تهوى غلاماً له وينشر الخبر، ويعرف ديك الجن عند عودته فيسرع دون تريث فيستل سيفه فيقتلها ويقتل الغلام، ويعلم ديك الجن حقيقة المكيدة الحاقدة بعد ذلك فيندم ندماً شديداً ويظل شهراً لا يفيق من البكاء[77].

إن مجون ديك الجن ليس في حاجة إلى تأكيد، ففي أشعاره خمريات يتغنى فيها بالخمر ويصور مجالسها وسقاتها، وفي أشعاره غزليات لا تقل عن خمرياته، يصور ذلك في قوله[78]:

ثم انثنت سورة الخمار بنا خلال تلك الغدائر الخمرة

(76) ديك الجن: عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام بن حبيب بن عبد الله بن رغبان، ولد في حمص سنة 161هـ، وفيها نشأ خليعاً ماجناً، شاعر مجيد متفاوت «ظاهر التكلف» أحياناً توفي سنة 235هـ، انظر: سير أعلام النبلاء 11/ 163، الوافي بالوفيات 18/ 422 الأعلام 4/ 5، معجم المؤلفين 5/ 224.

(77) ديوان ديك الجن، تح د. أحمد مطلوب ود. عبد الله الجبوري، دار الثقافة، بيروت 113.

(78) المصدر السابق، 80.

ولـيـلـة أَشْـرقـتْ بِـكـلـكـلـهـا عـلـيَّ كـالـطـيـلـسـان مـعـتـجـرة
فـتـقـتُ ديـجـورهـا إلـى قـمـرٍ أثـوابـه بـالـعـفـاف مـسـتـتـرة

ويهجر ديك الجن المجون والخمر وجلساءه، ويلزم نفسه داره لا يقابل أحداً، ويرجع هذا التحول من المجون إلى الزهد، إلى تلك المحنة التي ألمت به فيتمرد على هوى الغواني ويرميهن بالكذب في عواطفهن وبالنفاق في مشاعرهن، ويصور حزنه وندمه في قوله[79]:

لـو كـان يـدري الـمـيـت مـاذا بـعـده بـالـحـي حـلَّ، بـكـى لـه فـي قـبـرهِ
غـصـص تـكـاد تـفـيـض مـنـهـا نـفـسـه وتـكـاد تُـخـرِجُ قـلـبَـهُ مـن صـدرهِ

وينصح بتجنب المجون، والزهد في هوى الغانيات بقوله[80]:

أخا الرأي والتدبير لا تركب الهوى فإنَّ الهوى يرديكَ من حيثُ لا تدري
ولا تـثـقَـنَّ بـالـغـانـيـاتِ وإن وفـتْ وفـاءُ الـغـواني بـالـعـهـود مـن الـغـدْرِ

وتكثر الحكمة في شعر ديك الجن، وتقل أو تنعدم خمرياته وغزلياته وغلامياته، ويكثر شعر التوبة والاستغفار، والندم والحزن، حتى أضحت حكمته مصدراً ثرياً لغيره من الشعراء العرب، ينهلون من معانيها ويصوغون على نهجها، وجاءت أشعاره في التوبة والاستغفار على هيئة عظات وعبر مركزة، أملاها عليه ألم التجربة ومرارة الواقع وجاءت في صياغات فنية، تدل على صفاء شاعريته، لم يكن ديك الجن حكيماً أو واعظاً إنما كان معبراً عن محنة ذاتية ومصوراً لتأثره بها من مثل قوله[81]:

عـلـى هـذه كـانـت تـدور الـنـوائـب وفـي كـل جـمـع لـلـذهـاب مـذاهـبُ
نـزلـنـا عـلـى حـكـم الـزمـان وأمـره وهـل يَـقـبَـلُ الـنـصـفَ الألـد الـمـشـاغـبُ
وتـضـحـكُ سـنُّ الـمـرءِ والـقـلـبُ مـوجَـعُ ويـرضـى الـفـتـى عـن دهـره وهـو عـاتـبُ

(79) ديوان ديك الجن مصدر سابق، 93.
(80) المصدر السابق، 115.
(81) المصدر السابق، 72.

ومن الشعراء الذين رثوا أبناءهم، وكان موت الأبناء محنة قاسية، دفعتهم إلى هجر المجون وإلى التوبة والاستغفار من ذنوبه الصنوبري[82]، كان من الشعراء المجان عرف بالخمريات والغلاميات، ويكثر في شعره وصف الخمر والساقي والنديم ويصف لياليه ومجالسه، وما يدور في مجالسه من غناء الجواري الجميلات قال في فتاة مسيحية[83]:

لا ومكان الصليبِ في النحرِ منـ ـكِ ومجرى الزنّار في الخَصْرِ
وسُكْرِ أجفانك التي حَلَفَ الـ ـفتورُ ألاّ تَفيق من سُكْرِ
وأقحوانٍ بفيكِ مُنْتظمٍ على شبيهِ الغديرِ من خَمْرِ

والصنوبري يتغزل في غلامه، ويصوره حين يشرب خمراً فيقول[84]:

بدرٌ غدا يشربُ شمساً غَدَتْ وحَدُّها في الوصفِ مِنْ حَدِّهِ
تغربُ في فيه ولكنَّها من بَعْدِ ذا تطلعُ من خده

ويفيق الصنوبري من لهوه، ويعدل عن مجونه، ويتمنى لو زهد في الدنيا وفي متاعها الزائل، فقد كبرت سنه وآن له أن يتوب ويكف عن لهوه بقوله[85]:

ألقتْ رداءَ اللهو عن عاتقي خمسٌ وخمسون مَضَتْ واثنتانْ

ولقد كان لموت ابنته ليلى أثر مباشر في تجنبه المجون وفي إعلان توبته فقد تكرر في رثائه لها تصوير الموت والقبر والإكثار من العظات التي يجب أن يعرفها الأحياء، وقف الصنوبري أمام قبرها يستلهم العظات من الموت ومن رحيل الأحبة وفي ذلك يقول[86]:

---

(82) الصنوبري: أحمد بن محمد بن الحسن بن مُراد الضبي المعروف بالصنوبري ولد في أنطاكية 284هـ، شاعر محسن، في شعره سهولةٌ وعذوبةٌ ويسمونه حبيباً الأصفر لجودة شعره توفي سنة 334، انظر: الوافي بالوفيات 7/ 379، الأعلام 1/ 307، ومعجم المؤلفين، 2/ 91.

(83) ديوان الصنوبري، تح إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت 1/ 62.

(84) المصدر السابق، 2/ 420.

(85) المصدر السابق، 2/ 453.

(86) المصدر السابق، 1/ 228.

أدورُ على جوانب قبر ليلى وأبكي حَوله بدم فضيضِ
أُراعي قَبرَها حَدِباً عليه مراعاةَ الممرِّض لّلمريض
ويترك مضجعي أُخرى الليالي قضيضاً ذكرُ مَضْجَعِها القضيض
أواحدتي رُدِدْتِ وكنت قَرضاً وهذا الدهرُ مردودُ القروض
وبعضُ الصبر ينهضُ حين يكبو وصبري عنك ليس بذي نُهوض

إن دافع المحنة يشتد في قسوته على نفس الشاعر الماحن، خاصة إذا كان الشاعر قد كبر في السن، فيؤمن بنهاية العمر، فيظل في توبة لا يرجع عنها، ومن هؤلاء الشعراء المجان الذين أصيبوا بمحنة التيمي[87]، من أشهر الوصافين للخمر فهو يشرب الكأس بعد الكأس، ويعجز عن أداء الفروض المطلوبة، لأنه في حالة من السكر الشديد المستمر الذي يمنعه من الصلاة وقد عبر عن ذلك بقوله[88]:

شربت من خمر يوم الخميـ ـس بالكأس والطاس والعَنقل
فما زالت الكأس تغني لنا وتذهب بالأول الأول
إلى أن توافت صلاة العشا ء ونحن من السكر لم نغفل

ويموت للتيمي ابن ويحزن عليه حزناً شديداً، ويرثيه في بعض أشعاره ويهجر المجون ويتأمل في الحياة ويتدبر في أمورها، ويعلن توبته ويهجر الملاهي، ويتجنب شرب الخمر، ويكثر من شعر التوبة والاستغفار، ويسلك مسلك القناعة في حياته، فيقنع بما قسم له ربه، راضياً، ويسأل الله من فضله ورحمته، لينعم عليه بتوبته وبغفران من خزائنه التي لا تنفد، وويل لمن لم يرحمه ربه، فالبشر جميعاً مساكين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً نجد ذلك في قوله[89]:

(87) التيمي: أبو محمد بن عبد الله بن أيوب مولى بني تيم اللات توفي 209هـ ـ 824م، من شعراء الدولة العباسية الخلعاء المجان الوصافين للخمر انظر: الوافي بالوفيات 17/ 79، الأعلام 4/ 73، الأغاني 18/ 115.
(88) الأغاني مصدر سابق، 18/ 115.
(89) المصدر السابق 18/ 122.

لا تخضعن لمخلوق على طمع فإن ذاك مضر منك بالدين
وارغب إلى الله مما في خزائنه فإنما هو بين الكاف والنون
أما ترى كل من ترجو وتأمله من الخلائق مسكين ابن مسكين

زهد التيمي فتجنب المدح وسؤال الإنسان وهجر المجون، فلم يقل في الخمر والغزل، ولعل محنته في فقد ابنه من العوامل المساعدة على تحوله من المجون إلى الزهد فيه.

الشيب:

الشيب في شعر الشعراء المجان من أبرز الدوافع إلى زهدهم وإلى تركهم المجون، ولم يكن أثره واحداً عند الشعراء المجان، وباختلاف رؤية الشعراء المجان للشيب يصبح الشيب موضوعاً شاملاً، يدخل تحت لوائه موضوعات فرعية وجزئيات عديدة، من هذه المضامين الفرعية، بكاء الشباب ومدح الشيب وتصوير ما نزل بروح الشاعر من طاقات روحانية، ومن كمال في العقل، كما عقد بعض المجان مقارنات بين الشباب والشيب، فضّل البعض فيها الشيب على الشباب، وفزع آخرون من الشيب وترحموا على الصبا والشباب، ولم يكن الشيب بالظاهرة التي يغفلها الشاعر العربي الواعي الذي أوتي دقة الملاحظة، والقدرة على تصوير الأشياء وعلى فهم النفس والتعرف على الذات، فكان الشعر الذي قاله الشعراء في تصوير الشيب يمثل تراثاً أدبياً عربياً عظيماً.

ومن العجيب أن تُرحب بعض النساء بشيب الرجال ويعجبن به، ويرين فيه أمارات التعقل والاتزان ويرين فيه بعداً عن التهور والطيش وحماقة الشباب، بينما نفرت كثيرات من شيب الرجال وسخرن منه، وظنن أنهم في حالة من العجز فقدوا معها طاقات الشباب وحيويته، إن هذه المواقف المختلفة من الشيب تجمعت في أشعار الشيب عند الشعراء المجان، يصورون تقبلهم للشيب، ويصورون الأثر الذي أحسوا به حين وصلوا إلى هذه السن، وقال

معظم المجان في مرحلة الشيب أحلى أقوالهم في الحكمة والزهد والقناعة، فعبروا في تلك المرحلة عن عصارة فكر ونضج تجربة.

ويرتبط تصوير الشعراء للشيب بشعر التوبة والاستغفار، فيكثرون من تسبيح الله وحمده، وطلب الرحمة من الله سبحانه وتعالى، ومنهم من يرتبط تصويرهم للشيب بمعان تشاؤمية، تدور حول الموت والناعي، والغناء والهلاك فيفقدون الإحساس بالحياة ويفقدون طمعها.

ومن الشعراء المجان الحسين بن الضحاك المعروف بالخليع[90]، وقد صور شيخوخته والشيب الذي نزل به ويعلن أنه قد بلغ الثمانين من عمره، ويأمل أن يغفر الله له متأثراً بالحديث الذي روي عن رسول الله ﷺ عن الشيوخ والعجائز من أبناء الثمانين، روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله عز وجل ليكرم أبناء السبعين ويستحي من أبناء الثمانين أن يعذبهم**»[91] يقول الحسين بن الضحاك في ذلك[92]:

أما في ثمانين وُفِّيتها ... عذيرٌ وإن أنا لم أعتذر
وقد رفع الله أقلامه ... عن ابن ثمانين دون البشر
فإن يقضِ لي عملاً صالحاً ... أثاب وإن يقضِ شرّاً غفر

ويصور بعض الشعراء الشيب وهم لا يزالون في شبابهم، رمزاً للظلم ولكراهية الحياة، وللسأم من الحياة والعيش والزهد في مباهج الحياة مع القدرة

(90) الحسين بن الضحاك بن ياسر، المعروف بالخليع، لما كان عليه من الاستهتار في الفسق والمجون، ولد سنة 155هـ شاعرٌ مطبوعٌ ظريفٌ ماجنٌ، أستاذه والبة بن الحباب، ومن أقران أبي نواس، عاش إلى أيام المستعين فكانت وفاته سنة 250هـ انظر: معجم الأدباء، 10/ 5، الوافي بالوفيات، 12/ 379، الأعلام، 2/ 239.

(91) بهجة المجالس وأنس المجالس، النمري القرطبي، تح محمد موسى الخولي، مراجعة عبد القادر القط، دار الكتاب العربي، 2/ 210.

(92) معجم الأدباء، ياقوت الحموي، تح أحمد فريد رفاعي، دار إحياء التراث العربي، بيروت 5/ 14.

على الاستمتاع بها، ولم يكن الشيب عندهم شعراً أبيضَ ينزل بالرأس يُغير سوادها فحسب، بل كان حزناً وكآبة أيضاً، وتصويراً لأزمات وتناقضات واضحة في حياتهم، فلم يتحملوا قسوة الظلم، ولم يقدروا على معارضته أو التصدي لأهله، وعجزوا عن الشكوى، وحرموا القدرة على التعبير فصوروا شيبهم وعجزهم، فقد أتى الشيب قبل موعده، وهو لم يأت بالفعل وهذه الحالات من أخطر حالات الشيب، ومن أشدها قسوة فالشاعر يصور شيب النفس الذي يحطمها، ويهدم معنوياتها، ويقوض أركان السعادة، وهو شيب الوجوه الذي يزيل منها النضارة ويزيل عنها دماء الحيوية والشباب، وقد بالغ بعض الشعراء في هذا المعنى، حين صوروا الولدان والرضع شيباً من قسوة الظلم الصارخ في الحياة، يقول ابن المعتز[93]:

شيبتني ولم يشبني السـ ـن هموم تترى ودهر مريد

وهذا أبو العتاهية ينعى الشباب الذي ولى عنه دون أمر منه ودون رغبة ويحتسبه عند الله احتساباً بقوله[94]:

مضى عني الشباب بغير أمري فعند الله أحتسب الشبابا
وما من غاية إلا المنايا لمن خَلِقَتْ شبيبته وشابا

لقد كان المشيب خير واعظ لمجون ابن المعتز بعد محنته، يصور الشيب وهو يضحك على الشباب، ويشبه عودته إلى التقى وهجره للمجون بعودة السيف إلى غمده، ولا يرى سبباً لعذل العاذل على هجره للمجون فقد كبر على العتاب وودع الشباب وما به في قوله[95]:

أعاذلَ قد كبرتُ على العتاب وقد ضحك المشيب على الشبابِ
رددتُ إلى التقى نفسي فقرَّتْ كما رُدَّ الحسام إلى القِرابِ

(93) شعر ابن المعتز، تح يونس أحمد السامرائي، وزارة الأعلام، العراق 1/ 65.
(94) ديوان أبي العتاهية، مصدر سابق، 34.
(95) شعر ابن المعتز، مصدر سابق، 1/ 58.

وفي الشيب يرى أبو نواس نفسه وكأنها تموت عضواً عضواً ويرى الفناء وهو يدب في جسمه فيتذكر الله ويعمل على طاعته ويندم على ما ارتكبه في شبابه، ولم يشعر بهذه المعاني إلا حينما رأى الشيب يغزوه، فأصبح عاجزاً عن مواصلة المجون، وأن التوبة ضرورة لا مفر منها، فأخذ يتأمل مجونه في ماضيه ويطلب العفو من ربه في شيبه فيقول[96]:

دب في الفناء سفلاً وعلوا ... وأراني أموت عضواً فعضوا
ذهبت شرتي وجدت نفسي ... وتذكرت طاعة الله نضوا
ليس من ساعة مضت بي إلا ... نغصتني بمرها لي جزوا
لهف نفسي على ليال وأيا ... م سلكتهن لعباً ولهوا
قد أسأنا كل الإساءة يا ر ... ب فصفحاً عنا إلهي عفوا

فالشيب عنده لم يكن نتيجة شيخوخة، وإن كان نتيجة إفراط في شبابه في المجون، فعجل له العجز والوهن، وعدم القدرة على التمادي في المجون، فلم يجد بداً من أن يتوب ويعلن زهده في الحياة وفي متاعها كله، فأخذ ينظم شعراً في الزهد والتوبة والاستغفار، ويكثر من هذه الأشعار في مرحلة الشيب.

ولم تكن هي المرحلة الوحيدة التي نظم فيها زهدياته، فلطالما كان ينظم شعراً في الزهد، وهو غارق في مجونه، ولعلها فترات كان يصحو فيها ويفيق من مجونه، أو لعله يحاول أن يعرف ما في الزهد وما في القناعة من أسرار الإيمان بهما، وكانت نفسيته تتسم بالتردد في تلك المرحلة المتعددة من مراحل التوبة قبل مرحلة الشيب، فكان يتردد بين المجون وبين الزهد وبين الباطل وبين الصلاح، وبين الصلاح والرضى، فلم يكن مستقراً في شعوره ولم يكن مطمئناً على نفسه، ولم يكن هادئاً قانعاً، وهذه التقلبات كان لها تأثير في إمدادها تجربة الشاعر الأخيرة بالمد الروحاني الصادق مما أدى إلى تعميقها وإثرائها، فجاء شعره في مرحلة الشيب أكثر صدقاً من المراحل النفسية الأخرى.

(96) ديوان أبي نواس، تح بهجة عبد الغفور، دار الرسالة للطباعة، 988.

إن الشعراء المجان وإن كانوا لا يطيعون الدوافع الأخرى التي فرضت عليهم، فإن دافع الشيب لم يستطع ماجن التصدي له، والوقوف أمامه، في محاولة للانتصار عليه أو عدم الامتثال لأمره، فقد انتصر الشيب على الشعراء المجان وأجبر الكثير منهم على الزهد، فرأينا من رحب به، ورأينا من ذمه ورأى فيه نذيراً للموت، ولكنهم جميعاً ابتعدوا عن المجون ونصحوا غيرهم وندموا على أفعالهم في ماضيهم وطلبوا المغفرة من الله.

ومهما تعددت دوافع الزهد عند الشعراء المجان العباسيين، فإن دافع الشيب يبدو أعظمها وضوحاً، وهو الدافع المشترك مع دوافع أخرى عند كثيرين من الشعراء المجان.

الاقتناع بالزهد

يعد الاقتناع بالزهد والإيمان به من أصدق الدوافع التي دفعت الشعراء المجان إلى التخلي عن مجونهم، وإذا كان الشعراء الذين ينطبق عليهم تأثير هذا الدافع فئة قليلة إلا أنهم مع قلتهم كانوا أكثر الشعراء صدقاً وأشدهم إيماناً بالزهد وبالتوبة عن المجون، إن الزاهد الحقيقي هو الذي يتعفف عن قدرة، لا عن عجز ويجبر نفسه الأمارة على تجنب المجون، واتخاذ الزهد مسلكاً ومنهجاً له في الحياة المقبلة.

ولا نعجب حين نرى أن انتشار المجون، كان سبباً مباشراً وقوياً في انتشار الزهد وفي ازدهاره، فقد مل المجان مجونهم، وزهدوا في المتع الحسية وتعالوا على الملذات واستجابوا لنداء العقل.

من أبرز هذه الطائفة رابعة العدوية، يبدو أن قحطاً لحق البصرة «فهامت رابعة وأخواتها على وجوههن، ثم وقعت في الرق ولكن سيدها أعتقها، فتكسبت برهة بالغناء والنفخ في الناي وما يتصل بهذين عادة إلا أنها تابت بعد ذلك، وحملها ندمها على ماضيها على أن تمعن في الزهد»[97]

(97) تاريخ الأدب العربي الأعصر العباسية، د. عمر فروخ، دار العلم للملايين، ط4، 129.

فمن الأشعار التي رويت لرابعة في حبها الإلهي قولها[98]:

إني جعلتك في الفؤاد محدثي وأبحت جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجليس مؤانس وحبيب قلبي في الفؤاد أنيس

ومعظم شعرها في التغني بحب الذات الإلهية والهيام في عشقها وتدعو في شعرها إلى الزهد في الحياة وإلى الإكثار من طاعة الله وإلى التعبد والتهجد في قولها[99]:

صلاتك نور والعباد رقود ونومك ضد للصلاة عنيد
وعمرك غنم إن عقلت ومهلةٌ يسير ويفنى دائماً ويبيد

ومن الشعراء الزهاد الذين زهدوا بعد مجون فأكثروا القول في الزهد حتى عدوا من الشعراء الزهاد المعروفين الشاعر محمود الوراق[100]، كان يأخذ في صدر شبابه من متع الحياة بنصيب فقد قال عنه د. شوقي ضيف: إنه كان من طلاب اللهو والفتك قبل أن يتزهد[101] ولقد سيطر الزهد على شعره ويكثر من الوعظ ومن ذم النفاق وضرورة البعد عن المآثم والمعاصي، فاقتصر شعره على الزهد، وأفرد له قصائد ومقطوعات كلها في الحكمة والموعظة الحسنة وفي ضرب المثل وفي الحث على الزهد والتقرب من الله، لقد علَّم الوراق الناس دروساً في الصبر والتحمل والتجلد لمصائب الدهر ولنوازله، وقد ذم من يدَّعون الأمانة وهم يسلكون طرق الخيانة، فما أكثر من يحسنون القول ويسيئون الفعل، فنظم الوراق أشعاراً في معالجة هذه الأوبئة الأخلاقية في مقطوعات بسيطة وأسلوب عذب أنيق، وألفاظ رشيقة، ومعان تسر الخاطر، من ذلك قوله يخاطب المغرور[102]:

---

(98) الأدب في التراث الصوفي د. عبد المنعم خفاجي مكتبة غريب، القاهرة 201.

(99) شهيدة العشق الإلهي د. عبد الرحمن بدوي وكالة المطبوعات، الكويت 73.

(100) محمود بن حسن الوراق شاعر مجيد، اشتهر مع صديق له بالاستهتار في الخمر والمجون، أكثر شعره في المواعظ والحكم والأمثال توفي نحو 230هـ، 845م، انظر: سير أعلام النبلاء 11/ 461، الوافي بالوفيات، 25/ 191، الأعلام 7/ 167، تاريخ بغداد 13/ 87.

(101) تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، د. شوقي ضيف دار المعارف ط8، 409.

(102) بهجة المجالس، مصدر سابق، 2/ 207.

أيـهـا الـمـغـرور مـهـلاً فـلـقـد أوتـيـت جـهـلاً
كـم إلـى كـم تـحـسـن الـقـو ل ولا تـحـسـن فـعـلا
ظـاهـر يـجـمُـلُ والـبـاطـن لا يـخـفـى عـلـى ربـك كـلا

ويخاطب الورّاق المسلم، أن يبادر إلى العمل الصالح وأن يجافي الذنوب حتى يكون مطيعاً لربه بقوله[103]:

تعصي الإله وأنت تظهر حُبه هذا محالُ في القياس بديعُ
ولو كنت تضمر حبَّه لأطعته إن المحبَ لمن أحبَّ مُطيعُ
في كل يوم يبتليك بنعمةٍ منه وأنت لشكرِ ذاك مُضَيّعُ

ومن الشعراء الذين زهدوا بعد ما عرف عنهم من مجون الشاعر محمد بن يسير الرياشي[104]، كان ماجناً مشغوفاً بالشراب، وكان شديد البخل رثّ الثياب، لكنه زهد وأكثر من قول الحكمة والزهد.

يروي له صاحب الأغاني قصيدة في تصوير الصبر والتنفير من اليأس في 8 أبيات[105]، ووردت عند عمر فروخ 5 أبيات «2/ 222» وقد نسبها ابن المعتز إلى محمد بن حازم[106]، وأورد منها 4 أبيات «ص 308» مع اختلاف في الترتيب، غير أنها لم ترد في ديوان محمد بن حازم:

---

(103) تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، د. شوقي ضيف 410.

(104) أبو جعفر: محمد بن يسير الرّياشي، بعد زهده أكثر من قول الحكمة والزهد توفي سنة 220هـ 835م، غير أن اسمه ورد خطأ عند صاحب كتاب الأغاني بقوله: «محمد بن بشير» فهذا المترجم له هو غير محمد بن بشير العدواني، وقد سار الناسخ في جميع الترجمة على لفظة «بشير» دار عز الدين للطباعة والنشر 12/ 124، وسار على ذلك أيضاً مؤلف كتاب «المحمدون من الشعراء» في ترجمة 129، ص228، والصواب ما في الشعر والشعراء، 2/ 205، وشرح القاموس مادة «يسر».

(105) الأغاني، 12/ 132.

(106) محمد بن حازم بن عمر الباهلي، ولد ونشأ في البصرة، وهو شاعر مطبوع، إلا أنه كان كثير الهجاء، انظر: الأغاني 12/ 151، معجم الشعراء 371، طبقات الشعراء 307، تاريخ بغداد 2/ 295.

ماذا يكلفك الروحات والدُلجا البرَّ طوراً وطوراً تركب اللُجَجا
كم من فتى قصرَتْ في الرزق خطوتُه ألفيته بسهام الرزق قد فلجا
لا تيأسنَّ وإن طالت مطالبَةٌ إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا
إن الأمور إذا انسدت مسالكها فالصبر يفتح منها كل ما ارتتجا
أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ومُدْمِنْ القرع للأبواب أن يلجا
فاطلب لرجلك قبل الخطو موضعها فمن علا زلق عن غرة زلجا
ولا يغرنَّكَ صفوٌ أنت شاربُهُ فربما كان بالتكدير مُمْتَزَجا
لا ينتج الناس إلاّ من لقاحِهُم يبدو لقاحُ الفتى يوماً إذا نَتِجا

وشعر محمد بن يسير في المجون كثير، وشعره في الزهد يعادله أيضاً في الكثرة، ولقد زهد بعد مجون، ولم يكن مجبراً على زهده، ولم يبك الشباب ويندم عليه، بل كان فرحاً بحياته الجديدة، ومن شعره في الحكمة وفي معرفة الحياة ما رواه الجاحظ في البيان والتبيين قوله[107]:

تأتي المكاره حين تأتي جملة وترى السرور يجيء في الفلتات

ورد في الأغاني عن محمد بن يسير أنه أنشد عن نفسه في مجلس من مجالس الزهد قوله[108]:

ويل لمن لم يرحم الله ومن تكون النار مثواه
وأغفلتا في كل يوم مضى يذكرني الموت وأنساه
من طال في الدنيا به عمره وعاش فالموت قصاراه
كأنه قد قيل في مجلس قد كنت آتيه وأغشاه
محمد صار إلى ربّه يرحمنا الله وإياه

فأبكى جميع من حضر.

(107) البيان والتبيين، الجاحظ، تح فوزي عطوي، دار صادر، بيروت، 2/ 209.
(108) الأغاني للأصفهاني، 12/ 131.

السمات الفنية لشعر الزهد عند المجان:

وسنتناولها في قسمين: السمات الجمالية والسمات الفكرية.

أولاً ـ السمات الجمالية:

تتعلق بأمور متعدّدة منها اللفظ والصورة وما يتعلق بهما من سطحيّة أو جزالة أو تكلف، فاللفظ المعبر عن معانيه، أداة يستطيع بها الشاعر الفنان أن يخرج فناً رائعاً مبدعاً.

إن دراسة اللفظ تستوجب دراسة العلاقة التي تربطه بغيره وتوضّح تفاعله مع السياق الذي وضع فيه، وتعود مهارة الشاعر إلى قدرته على التفاعل مع الألفاظ في الاختيار وربط فكر الشاعر وأداته الفنية، وهذه أهم وظائف اللفظ في زهد المجان بالإضافة إلى التعبير عن موقفهم وتوضيح أفكارهم ووعظ الآخرين ونصحهم، ولقد آمن الشعراء بضرورة استخدام الألفاظ السهلة في تعبيرهم عن توبتهم، وفي استغفارهم من ذنوبهم، في كل مضامين زهدياتهم.

فيمتاز شعر أبي العتاهية في زهدياته بالسهولة واللين، يعلل د. شوقي ضيف هذا اللين «لملازمته للمخنثين في مطلع حياته وتعرفه على لغتهم»[109] ولعلها سمة غلبت على شعره في مجونه وفي زهده، ولكنه زاد في سهولة اللفظ وأمعن في ذلك حين بدأ يتحول من المجون إلى الزهد، ويعبر عن رأيه في اختيار الألفاظ السهلة حتى يصل إلى العامة قبل الخاصة، فنراه يعبر عن المال وعلاقة الإنسان به في قوله[110]:

إذا المرْءُ لَمْ يُعْتِقْ مِنَ المالِ رِقَّهُ ... تَمَلَّكَهُ المالُ الذي هُوَ مالِكُهْ

ألا إنما مالي الذي أنا مُنْفِقٌ ... وَلَيسَ لي المالُ الذي أنا تارِكُهْ

إذا كُنْتَ ذا مالٍ، فبادِر بهِ الذي ... يَحِقُ وَإلا استَهلكَتْهُ هَوَالِكُهْ

(109) الفن ومذاهبه في الشعر العربي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، ط9، 169.

(110) ديوان أبي العتاهية، مصدر سابق، 317.

إن سهولة ألفاظ زهدياته ساعدته على انتشارها، ووصولها إلى أسماع الناس عبر المطربين، فأخذوا بعض وعظه وأنشدوه في طرقاتهم، وقد غنى الملاحون شعره في حضرة الرشيد في إحدى نزهاته بدجلة فلما سمعها أخذ يبكي، منها قوله[111]:

لـدَواعـي الـخَـيـرِ والـشّـ ـرّ دُنُـوٌّ وَنُـزُوحُ
سَـيـصِـيـرُ الـمَـرْءُ يَـوْمـاً جَـسَـداً مـا فـيـهِ رُوحُ
بَـيـنَ عَـيْـنَـي كُـلّ حَـيٍّ عَـلَـمُ الـمَـوْتِ يَـلُـوحُ
كُـلُّـنَـا فـي غَـفْـلَـةٍ وَالـ ـمَـوْتُ يَـغـدو ويَـرُوحُ
نُـحْ عـلـى نَـفْـسِـك يـا مِـسـ ـكـيـنُ إنْ كـنـتَ تـنُـوحُ
لـتـمـوتـن وإن عُـمّـ ـرْتَ مـا عُـمِّـر نُـوحُ

وأبو العتاهية عرف بالجزالة والرصانة في ألفاظ مدائحه وتعبيراتها، ينحو نحو السهولة، ولم تكن غريبة عليه، فقد مارسها في بعض أشعاره الماجنة حتى أصبحت بعض غزلياته أسلس على اللسان من الماء العذب وكان يستخدم اللغة الجزلة في مدائحه فيختار لها اللفظ الرصين، وقد حافظ على سمة السهولة في زهدياته في شعر التوبة والاستغفار، فقد كان يسلك مسلك البساطة في زهده، من ذلك قوله[112]:

كُـلُّ حَـيَـاةٍ فَـلَـهَـا مُـدّةٌ وكُـلُّ شـيءٍ فَـلَـهُ آخِـرُ
سُـبْـحَـانَ مَـنْ أَلْـهَـمَـنـي حَـمْـدَه وَمَـنْ هُـوَ الأَوّلُ وَالآخِـرُ
يـا رَبّ إنّـي لـكَ فـي كُـلّ مـا قَـدّرْتَ عَـبْـدٌ آمِـلٌ شـاكِـرُ
فَـاغْـفِـرْ ذُنُـوبـي إنَّـهـا جَـمّـةٌ وَاسْـتُـر خـطـئـي إنّـكَ السّـاتِـرُ

فقد أراد أن يعبر عن نفسه في سهولة ويسر، وأراد أن يظهر للآخرين فكره الجديد ومنهجه الذي تبدل وتغير من المجون والعبث إلى التوبة والزهد،

(111) المصدر السابق، 116، 117.
(112) ديوان أبي العتاهية، مصدر سابق، 201.

لقد بدأ صفحة جديدة اهتم بها بنفسه، أو بالتفكير عن خطاياه، أكثر مما يهتم بالبحث عن اللفظ والصورة والصياغة، إن اختلاف مستويات اللفظ في شعره بين المجون والزهد أو بين مدائحه وشعر التوبة لا يعد تفاوتاً، ولكنه حين أقلع عن مجونه، نحا نحو السهل من اللفظ في زهدياته ليدل على عبقريته الفنية، فهو يعطي للموضوع ما يناصبه من الكلمات، ويُعطي المضمون بما يلائمه من اللفظ، فضلاً عن كونه لم يخاطب في زهدياته ليدلّ على عبقريته الفنيَّة فهو يعطي للموضوع ما يناسبه من الكلمات ويغطي المضمون بما يلائمه من اللفظ فضلاً عن كونه لم يخاطب في زهدياته الملوك والحكام.

وبشار بن برد حافظ على جزالة اللفظ في شعر الحكمة، لأن صنعته في شعره تقوم على الموازنة الدقيقة بين العناصر التقليدية في الشعر العربي والعناصر التجديدية المستمدة من الحضارة والثقافة المعاصرة، فهو الذي نهج هذا النهج من التطور بالشعر العربي تطوراً لا تنقطع الصلة فيه بين حاضره وماضيه[113].

وبشار لا يحتل مكانة بين الشعراء الزهاد، وإنما كان يستشهد به لما يصدر عنه في مجونه من قول حكيم ومن رأي صائب أحياناً، فلم يكن هدفه وصول حكمته أو وعظه إلى العامة، قدر ما كان إعجاباً بفنه ورغبة في تأكيد عبقريته، فلم يعمد إلى السهل من اللفظ ولم يسع إليه.

ومن السمات الفنية الغالبة على ألفاظ شعر الزهد انتخاب معظم مفردات زهدياتهم من القاموس الإسلامي، فغلب على ألفاظهم ذكر الجنة والنار والموت والقبر والصلاح والتقوى، والنعيم والسعادة، والثواب والعقاب، والحساب والآخرة، والتسبيح بحمد الله والتلبية والدعاء والصلاة والزكاة والركوع والسجود إلى آخر تلك الألفاظ التي يشع منها اتجاه الإسلام وروحانيته، وقد حظيت ألفاظ الشعر في زهد المجان بالعفة والنقاء، والبعد عن الفاحش من الكلمات.

(113) انظر: الفن ومذاهبه د. شوقي ضيف، مصدر سابق، 157.

ومن السمات التي حظيت بها ألفاظ شعر زهد المجان ما عرف بالتضمين وهو الأخذ من القرآن الكريم أو من الحديث ومن بعض أقوال الحكماء، وقد بذل بعض الشعراء جهداً في تضمين بعض آي القرآن الكريم في أبياتهم، منهم الشاعر الحمدوني ابن حمدويه[114]، من محبي الخمر وعشاق الطرب والعيش المستطاب[115]، ثم يزهد في متع الحياة ويقلع عن مجونه، ويسخر من العيش ويشكو الدنيا، يقول مضمناً بعض آي القرآن الكريم[116]:

فهو كالطور إذا تجلى له اللـ ـه فدكت قواه الأركان

يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾[117] وكذلك قوله[118]:

فإذا ما لبسته قلت سبحا نك محيي العظام وهي رميم

أخذ البيت من قوله تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾[119] وقد يشكو الحياة بطريقة غير مباشرة ويضمن في حديثه حديثاً للرسول ﷺ بقوله[120]:

لو أنه بعض بني آدم كان أسير الله في الأرض

أخذ المعنى من قول الرسول ﷺ: **«إن العبد إذ بلغ تسعين سنة كتبت له الحسنات وكفرت عنه السيئات وسمي أسير الله في الأرض»**[121].

---

(114) أبو علي إسماعيل بن إبراهيم الحمدوني توفي 260هـ، 874م، كان جده صاحب الزنادقة لعهد الرشيد وكان الحمدوني يطلب اللذة ويحب مجالس الأنس وهو من محبي الخمر وعشاق الطرب والعيش المستطاب ثم زهد وترك المجون انظر: الوافي بالوفيات 9/ 75، وفيات الأعيان، 7/ 95، الأعلام، 1/ 307.

(115) زهر الآداب، وثمر الألباب، الحصري، مصدر سابق، 2/ 145.

(116) المصدر السابق، 2/ 142.

(117) سورة الأعراف، الآية: 143.

(118) زهر الآداب، مصدر سابق، 2/ 157.

(119) سورة يس، الآية: 77.

(120) زهر الآداب مصدر سابق، 2/ 149.

(121) بهجة المجالس وأنس المجالس، القرطبي مصدر سابق، 2/ 217.

هكذا تأثرت السمات البارزة لألفاظ شعر الزهد عند المجان بطبيعة الموضوعات كما كانت تصورها حالة الشاعر النفسية المتجددة، فانتخب الشعراء مفرداتهم سهلة ميسرة غلب عليها النثر والارتجال واستمد معظمها من القاموس الإسلامي ومن بعض آي القرآن الكريم.

الصور الفنية في شعر الزهد عند المجان:

الصورة الفنية في شعر زهديات المجان لها أصول ومقومات ووظائف تختلف عنها في أشعار المجون، فمن الأمور الأولية التي تشد الانتباه، إلى هذه الصورة الفنية في أشعارهم، هو قلة عدد هذه الصور بالنسبة إلى أبيات القصيدة بالقياس إلى عددها في أشعار المجون عند الشاعر نفسه قبل أن يعلن توبته. ولعل من أبرز الأسباب التي تفسر ندرة الصورة الفنية في شعر التوبة والاستغفار التزام الشعراء بالحق وبالحقيقة وتجنبهم الخيال والمبالغة.

ولا يفهم من ذلك غياب الصورة الفنية من أشعار المجان بعد زهدهم بل كانت موجودة، حاضرة ولكنها كانت قليلة، لم يسع الشاعر إليها، وجاءت طبيعية عفوية غالباً، بسيطة غير متكلفة منها في قول أبي العتاهية[122].

رَغيفُ خُبزٍ يابِسٍ ... تَأكُلُهُ في زاوِيَةْ
وكُوزُ ماءٍ بارِدٍ ... تَشرَبُهُ مِنْ صافِيَةْ
وَغُرْفَةٌ ضَيِّقَةٌ ... نَفْسُكَ فيها خَالِيَةْ
أو مَسجِدٌ بِمَعزِلٍ ... عن الوَرَى في ناحِيَةْ
تَدْرُسُ فيهِ دَفْتَراً ... مُسْتَنِداً بِساريَهْ
مُعْتَبِراً بِمَنْ مَضَى ... من القُرونِ الخالِيَهْ
خَيرٌ مِنَ السّاعاتِ في ... فَيْءِ القُصُورِ العالِيَةْ
تُعْقِبُهَا عُقُوبَةٌ ... تُصْلَى بنارٍ حامِيَهْ

(122) ديوان أبي العتاهية، مصدر سابق، 488.

ويقول أبو نواس في بعض زهدياته التي لم يورد فيها الصور والخيال[123]:

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة فلقد علمت بأن عفوك أعظم

ومن أكثر المعاني في زهديات المجان التي صاغ فيها الشعراء صوراً فنية كثيرة الشيب فقد صوروه أقحواناً يفوح، وزهراً يتفتح ونوراً يسطع، من ذلك قول ابن المعتز[124]:

رأت أقحوان الشيب لاح وأذنت صلاحات أيام الصبا بوداع

ويقول أبو نواس في شيبه وفي دمعه الذي يجري على خده[125]:

الشيب في رأسي قد نورا والدمع في خدي قد أثرا.

وفيه يقول أبو العتاهية[126]:

الشيب إحدى الميتتين تقدمت إحداهما وتأخرت إحداهما

ويتناول كل شاعر صورة الشيب من وجهة نظره، فنرى أبا العتاهية يصور الشيب بالناعي والمنادي بالفناء، بينماأبو نواس وابن المعتز يصوران الشيب واعظاً وناصحاً ونذيراً، لقد كان للصورة الفنية في زهد المجان وظيفة ترتبط بخدمة المعنى وبتوضيح الفكرة وشدة التأثير.

واستطاع الشاعر أن يوفر لصورته الألوان التي تناسبها لتظهر فكرته في الثوب اللائق بها، ومن هذه الصور البارزة في شعر أبي العتاهية صورة القبر والموت، وقد اشترك معه في تصويرها أكثر من شاعر، واختلف كل منهم في طريقة تناوله. فهذا أبا نواس يجعل من الموت سهاماً صائبة تغتال الإنسان في قوله[127]:

---

(123) ديوان أبي نواس، مصدر سابق، 628.

(124) ديوان ابن المعتز، مصدر سابق، 1/ 236.

(125) ديوان أبي نواس، 862.

(126) ديوان أبي العتاهية، 489.

(127) ديوان أبي نواس 127.

كـــل امـــرئ تـــغـــتـــالـــه مـــنـــهـــا ســـهـــام صـــائـــبـــه

ويجعل أبو العتاهية الموت علماً يلوح بين عيني كل حيٍّ في قوله[128]:

بـــيـــن عـــيـــنـــي كـــل حـــي عـــلـــم الـــمـــوت يـــلـــوح

واستخدم الشعراء في صورهم بعض ألوان البديع المتنوعة وكان أكثرها شيوعاً في زهدياتهم المقابلة، لتصوير ما هو كائن وما ينبغي أن يكون عليه، ولم يكن التضاد في زهدياتهم حلية لفظية، يهدف الشاعر إليها، ولكنه أكثر منها ليصور حالتين مختلفين من حالاته ـ الأمس واليوم ـ ويمثل التضاد مع الاستعارة والتشبيه وغيرهما من ألوان التصوير في التعبير عن رؤية الشاعر للحياة، وفي تحديد موقعه منها، وتحشيد موقعه فيها، منها قول أبي العتاهية[129]:

لـعَـمْـرُكَ مـا الـدّنـيـا بـدارِ بَـقَـاءِ كَـفَـاكَ بـدارِ الـمَـوْتِ دارَ فَـنَـاءِ
حَـلاَوَتُـهـا مَـمـزُوجَـةٌ بـمَـرارَةٍ وراحَـتُـهـا مَـمْـزُوجَـةٌ بـعَـنَـاءِ

ويعقد ابن المعتز المقارنة بين حالتين تختصان به بين المجد والعز، وبين الضياع الذي فرض عليه؛ ولذلك يقابل بين النعم والمصائب في قوله[130]:

أنت علمتنا على النعم الشكر وعند المصائب التسليما
قد رضينا بأن نموت وتحيا أن عندي في ذاك حظاً عظيما

وفي شعر الحكمة في زهديات المجان تلعب المقابلة دوراً جديداً، فتقارن بين صفات الخلق الحميد، وصفات الأخلاق السيئة، وبين العبودية والحرية، وبين التقوى والفجور. من ذلك قول بشار[131]:

الصدق أفضل ما حضرت به ولربما ضر الفتى كذبه

(128) ديوان أبي العتاهية، 116.
(129) ديوان أبي العتاهية، مصدر سابق، 12.
(130) شعر ابن المعتز مصدر سابق 3/ 327.
(131) ديوان بشار، مصدر سابق، 1/ 357.

وقوله[132]:

الـغِـيُّ يُـعْـدِي فـاجْـتَـنِـب قُـرْبَـهُ واحْـذَرْ بُـغَـى مُـعْـتَـزَلِ الأَجْـرَبِ

ويقول أبو نواس مطابقاً بين الصمت والكلام[133]:

مـت بـداء الـصـمـت خـيـر لـك مـن داء الـكـلام

ولم يهتم الشعراء في زهدياتهم بألوان البديع الأخرى قدر اهتمامهم بالتضاد، فندر الجناس، ولم يكن هدفهم إبراز الصنعة ولكن كان الهدف التعبير عن الفكرة الجديدة التي أصبحوا مشغولين بها، فكرة التوبة والاستغفار والإقلاع عن المجون والزهد فيه.

ولعلنا نجد المستوى الفني لزهديات المجان يقل درجات عن مستواهم الفني في مجونياتهم، فقد أمدهم المجون بحرية في التعبير وبطلاقة في التصوير، وبعبقرية الخيال فتخطى الشاعر حدود الحقيقة، ولم يلتزم بالصدق، ولا بالواقع، بينما التزموا بالصدق وتمسكوا به في زهدياتهم، فضلاً عن اهتمامهم بتنقية اللفظ وتجنبهم للغش والإسفاف وقد جاءت معانيهم سامية راقية.

وإذا كان للصورة الفنية وظائف تحقق جوانب الفائدة والإمتاع فإن جانب الفائدة في زهديات المجان طغى على جوانب الإمتاع الفني، وفي معظم الحالات التي لجأ فيها الشعراء في زهدياتهم إلى التصوير، قامت الصورة بأداء دور أساسي في تحريك المعنى وتشكيله بحيث لا يمكن الاستغناء عنها، فلم تكن كمالية ثانوية، بل جاءت حين جاءت أصلية جوهرية، وإذا استغنى عنها فإن المعنى يهتز والفكرة لا تكتمل ولا تتضح.

إن الصورة في زهدياتهم عملت على سحب خيوط الأفكار إلى الأمام وعلى حيوية الفكرة وبعدها عن الجمود، فلم تكن للزينة ولتأكيد المعنى، بل

(132) المصدر السابق، 1/ 103.

(133) ديوان أبي نواس، 187.

كانت للتعبير وللأداء، ومن أظهر أدوار الفائدة التي أدتها الصورة الفنية في زهديات المجان، تأكيدها على الجانب الأخلاقي، وتسليط الضوء على المثل الإنسانية العليا، كما نجحت الصورة الفنية أيضاً في إثارة الانفعال، وفي تحريك المشاعر وفي السمو بالأفكار، وفي الارتقاء بالقيم وتطهير العواطف، ولم تخل الصورة الفنية في زهدياتهم عن أداء دورها الجمالي، لقد بدا ذلك في طرافة التصوير، وحسن التشكيل، والقدرة على نسج الخيوط المثالية في توازن إيقاعي جميل، فأضفت على المعنى طرافة وابتكاراً.

ثانياً ـ البناء الفني والسمات الفكرية لشعر الزهد عند المجان:

من النادر أن ينظم الشاعر قصيدة كاملة في الزهد إلا إذا كان متخصصاً فيه، وقد صنع أبو العتاهية معظم مقطوعاته خالصة في الزهديات بينما جاء الزهد في أشعار غيره، على هيئة أبيات قليلة، وفي مقطوعات قصيرة، وقد وضحت المقدمة الزهدية في بعض مطالع زهديات أبي العتاهية، وتعد تلك المقدمة من الألوان المبتكرة في مقدمات الشعر في العصر العباسي، فلم يفتتح الشاعر قصيدته بالطلل والخمر والغزل، ولكنه افتتحها بالتوبة والاستغفار وبالدعوة إليهما.

فقد جاء الزهد عندهم في أبيات معدودة، ولكنها متصلة ومتتالية، بينما جاءت الحكم والأمثال متناثرة غير متصلة، ولم يكن يجمع الشاعر بين أبيات الزهد وبين بعض فنون الشعر العربي الأخرى التي تتفق وطبيعة الزهد والدعوة إليه، وكانت الموضوعات التي دمج الشاعر بينها وبين توبته: البكاء على الماضي، والندم والحزن والخوف وتصوير الشباب والشيب، والشكوى من الدهر، وكلها موضوعات تفجر التوبة وتؤدي إلى الزهد، وقد يجمع الشاعر بين زهده وبين رؤيته في الحياة التي اتسم مسلكه فيها بالقناعة والرضا فيدعو إلى التعقل والاتزان، ويدعو إلى الصبر والتجمل.

لقد تفاوت زهد المجان بين اليأس والأمل وبين التشاؤم والتفاؤل وبين

السلبية والإيجابية، لكنه لم يتعد حدود التوبة والاستغفار، ولم يتخط درجات القناعة، فلم يتوغل في معاني الزهد، ولم يتعمق في دعوة الزهد تعمق الزهاد المنقطعين له، فلم يصل الشعراء بدعواهم إلى الصوفية، غير رابعة العدوية التي كانت قد أُجبرت على المجون إجباراً، ثم تخلت عنه وتابت واستغفرت وزهدت وتصوفت.

إن الزهد الذي تدعو إليه الصوفية يختلف عن الزهد الذي سلكه المجان من الشعراء بعد توبتهم، إن الزهد في أشعارهم توبة واستغفار وندم وشكوى وقناعة في ملذات الحياة، وتجنب شهواتها، إنه اعتراف بالذنب وندم عليه، وطمع في رحمة الله وغفرانه، لقد حمل معنى الزهد في أشعار المجان التائبين معنى التقوى ومعنى الأخذ بشرائع الدين والتمسك بها بعد الإسراف في الذنوب والإفراط فيها، لم يكن هذا الزهد أجنبياً أو مستمداً من ثقافات غير عربية، إنما كان مستمداً من القرآن الكريم والحديث الشريف ومن أقوال الأتقياء، ومن تجاربهم الذاتية التي مروا بها، فدعوا إلى التقوى ودعوا إلى التمسك بها عملاً بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾[134]، وقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[135] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[136].

* * *

(134) سورة الطلاق، الآية: 2.
(135) سورة آل عمران، الآية: 76.
(136) سورة النحل، الآية: 128.

المصادر والمراجع

1 ـ **الأدب في التراث الصوفي**، د. محمد عبد المنعم خفاجي مكتبة غريب القاهرة، 1980.

2 ـ **الأعلام**، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت 1984.

3 ـ **أعلام النساء في عالمي الغرب والإسلام**، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت 1977م.

4 ـ **الأغاني**، للأصفهاني، عز الدين للطباعة والنشر، لبنان، بيروت بدون تاريخ.

5 ـ **البيان والتبيين الجاحظ**، تح فوزي عطوي، دار صعب، بيروت 1968.

6 ـ **بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذهن والهاجس**، النمري القرطبي، ت. محمد موسى الخولي، م. عبد القادر القط، دار الكتاب العربي، ب.د.

7 ـ **تاريخ الأدب العربي، الأعصر العباسية**، د. عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت ط4، 1981م.

8 ـ **تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني**، د. شوقي ضيف، دار المعارف مصر ط3، 1977م.

9 ـ **تاريخ الأمم والملوك**، الطبري، ت. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر 1960م.

10 ـ **تاريخ بغداد**، الخطيب البغدادي، ت. محمد محي الدين عبد الحميد، مؤسسة السعادة 1931م.

11 ـ **الثقافات الأجنبية في العصر العباسي وصداها في الأدب**، د. صالح آدم بيلو، مكة المكرمة ط1، 1988م.

12 ـ **الحيوان**، الجاحظ تح عبد السلام هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده مصر، 1357هـ.

13 ـ **ديوان أبي العتاهية**، جمع وتحقيق كرم البستاني، دار صادر، بيروت 1964م.

14 ـ **ديوان أبي نواس**، تحقيق بهجة عبد الغفور، دار الرسالة بغداد، 1980.

15 ـ **ديوان أبي نواس** تحقيق إسكندر آصاف، دار العرب للبستاني بدون تاريخ.

16 ـ **ديوان بشار**، شرح حسين حموي، دار الجيل، بيروت ط1، 1996م.

17 ـ **ديوان بشار**، جمع وتحقيق محمد الطاهر بن عاشور، الشركة الشرقية للتوزيع، الجزائر 1976م.

18 ـ **ديوان ديك الجن**، تحقيق، د. أحمد مطلوب ود. عبد الله الجبوري، دار الثقافة بيروت 1969.

19 ـ **ديوان الصنوبري**، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت 1970م.

20 ـ **ديوان المعاني**، أبو هلال العسكري، دار الجيل، بيروت بدون تاريخ.

21 ـ **زهد المجان في العصر العباسي**، د. علي إبراهيم أبو زيد، دار الثقافة، القاهرة، 1986م.

22 ـ **زهر الآداب وثمر الألباب**، الحصري القيرواني، تحقيق علي محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي وأولاده، مصر بدون تاريخ.

23 ـ **سير أعلام النبلاء**، الذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1982م.

24 ـ **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، ابن عماد، المكتب التجاري للطباعة والنشر بيروت بدون تاريخ.

25 ـ **شعراء عباسيون**، غوستاف غرنباوم، ترجمة د. محمد يوسف نجم، دار مكتبة الحياة بيروت بدون تاريخ.

26 ـ **شعر ابن المعتز**، د. يونس أحمد السامرائي، نشر وزارة الأعلام، العراق 1977م.

27 ـ **شهيدة العشق الإلهي**، د. عبد الرحمٰن البدوي، وكالة المطبوعات الكويت ط4، 1978م.

28 ـ **صفة الصفوة** لابن الجوزي، حيدر أباد الدكن، 1355هـ.

29 ـ **صورة المرأة في الشعر العباسي**، د. علي إبرهيم أبو زيد دار المعارف القاهرة ط1 1983م.

30 ـ **ضحى الإسلام**، أحمد أمين، مكتبة النهضة، القاهرة، ط6، 1961م.

31 ـ **طبقات الشعراء**، ابن المعتز ت. عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، مصر، بدون تاريخ.

32 ـ **العقد الفريد**، ابن عبد ربه الأندلسي، تح علي شيري دار إحياء التراث العربي 1989م.

33 ـ **الفن ومذاهبه في الشعر العربي**، د. شوقي ضيف، دار المعارف ط9، 1976م.

34 ـ **الفهرست** لابن النديم، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة بدون تاريخ.

35 ـ **لسان العرب**، بن منظور، بولاق، القاهرة بدون تاريخ.

36 ـ **معجم الأدباء**، ياقوت الحموي، دار المأمون، القاهرة، بدون تاريخ.

37 ـ **معجم المؤلفين**، عمر رضا كحالة، دار إحياء التراث العربي، بيروت بدون تاريخ.

38 ـ **نهاية الأرب في فنون العرب**، أحمد بن عبد الوهاب النويري، دار الكتب المصرية 1929م.

39 ـ **الوافي بالوفيات**، الصفدي، تحقيق جماعة من العلماء، المعهد الألماني للأبحاث، بيروت 1997م.

40 ـ **وفيات الأعيان وإنباه أبناء الزمان**، ابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة بيروت، بدون تاريخ.